حمودة إسماعيلي

الإنسان الأسادي

الآخر شيطان حتى يثبت العكس

Telegram:@mbooks90

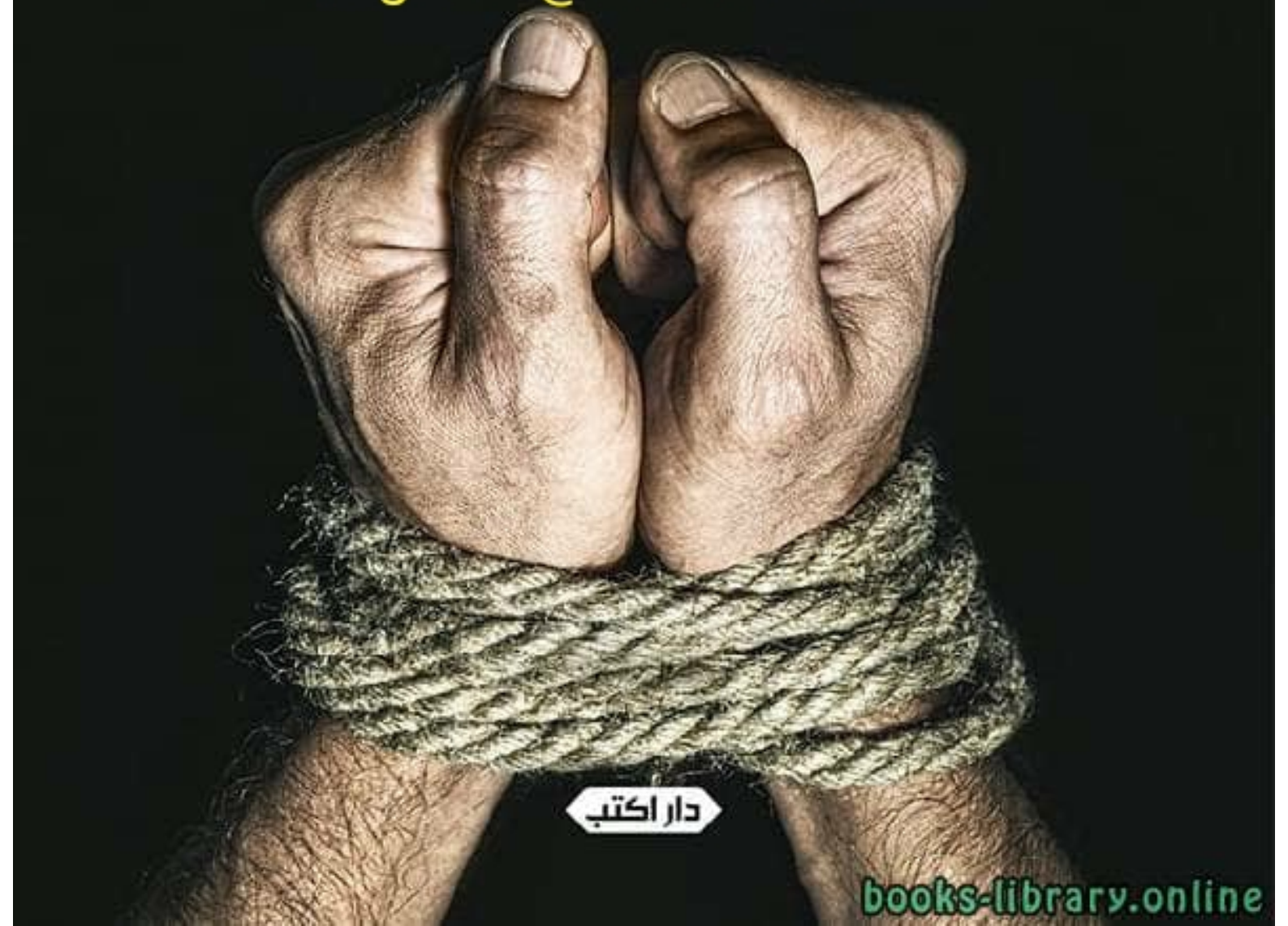

دار اكتب

books-library.online

الإنسان السادي

الآخر شيطان حتى يثبت العكس

حمودة إسماعيلي

الطبعة الأولى، القاهرة 2020م

غلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: نهى عبد الستار

رقم الإيداع: 26295/2019

I.S.B.N: 978 - 977- 488 -703 -1

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان: 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف: 01111947957

بريد إلكتروني: daroktob1@yahoo.com

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

الأنا و الآخر

نقد الفكر الاجتماعي

الآخر.. الأمل الذي قد يصبح مأساة

حمودة إسماعيلي

مقدمة

إن كان المجتمع هو جماعة من الناس تجمعها اهتمامات وهموم مشتركة، فإن هذه الجماعة ستتشارك بذلك ثقافة و«وعي» يمكّنها من تشكيل منظومة اجتماعية مُحكمة تساعد جميع الأفراد على تحقيق مصالحهم وسد احتياجاتهم، ما يضمن تعايشًا سلميًا يهدف للدفع بهذا الكيان الاجتماعي نحو التطور والازدهار.

لكن هذا لايمنع من ظهور تناقضات وتعقيدات بحكم تداخل المصالح الخاصة
Telegram:@mbooks90
في العلاقات الاجتماعية، التراتبية الفكرية والصراع الطبقي السوسيواقتصادي، دون الحديث عن الآليات الدفاعية للطبيعة البشرية المعقدة.

لذا فمحاولات تفكيك البُنى الفكرية الاجتماعية: حتى يتم رفع التناقض المُعطّل لحركة تطور الوعي الاجتماعي، وتحسين جودة العلاقات الإنسانية بالمجتمع. لا يتم إلا بطرح الإشكال كسبب للجدل وهو ما أشار إليه ماركس بنقد الدين.

فنحن نعلم أن النقد بالنسبة لـ«ماركس» يبدأ من الدين، لكن يجب ألا نغفل على أن الدين مجرد بذور تلزمها أرض خصبة وقابلة للزراعة، زيادة على تقاليد وعادات ترويه لينضج وينتج محاصيل. هذه الأرض الخصبة هي البنية الذهنية للمجتمع، فالدين هو الفلسفة المشتركة، والطقوس الفلكلورية المعبرة عنها كذلك. والتي تتلاءم (الفلسفة/ البذور) مع نوعية الأرض/البنية الذّهنية التي تحتضن عملية الإنتاج. لذا فنقد الدين لا يخدم أكثر من إزالة طلاء: فهو هنا ليس أكثر من طبقة سطحية - كالتركيز على التخلص من المحاصيل الرديئة، كإنتاج غير مرغوب؛ وانتظار ظهور محاصيل جيدة بعدها، في أرض غير صالحة لزراعة أصلاً!

لهذا يلزمنا الغوص في الطبيعة الإنسانية كأساس لبنية المجتمع في علاقتها

مع الآخر، أي أن النقد يبدأ من المجتمع، يبدأ من علاقة الأنا بالآخر، والآخر هو أنت كفرد أو كسلطة أو كمؤسسة، الآخر الذي ليس هو أنا. فأنا ليس أنت، وأنت لست أنا. وبهذا تُحدّد الأنا الأنت بالآخر الذي ليس هو أنا، وتُحدّد الآخر الذي هو أنت بليس هو أنا. فالآخر هو ما يُحدّدني أنا كأنا.

ومنه فما سنقدمه خلال صفحات الكتاب هو نقد علاقة الأنا والآخر، سواء بتفكيك بُنى فكرية تشكلت حول ظواهر اجتماعية معروفة تارةً، أو بتحليل لنوعية علاقات بين الأفراد تشكلت عبر تاريخ التطور الاجتماعي تارةً أخرى. وهذا بغرض فهم الوعي الجمعي والأفكار (المعتقدات) المتشكلة حول تلك الظواهر وكذلك العلاقات وأيضًا الأنماط الشخصية (بالأخص المرفوضة) داخل المجتمع. دون إدانة أو تجريم ودون توجيه أو نصح، إنما فقط كمحاولة لكشف بعض المعتقدات الاجتماعية والتقرب من هذه المعطيات الاجتماعية: بفهمها ورؤيتها من زاوية مختلفة ومغايرة، لعله في ذلك تنكشف لنا الإشكالات المسببة للصراعات الاجتماعية، كرفض الأنا للآخر أو رفض الآخر للأنا أو حتى رفض الأنا للأنا.

حتى ترى الشيطان!

قل أعوذ من الشيطان إن كان بشرًا أو كان جان

دا الإنسان لأخيه الإنسان، واحنا اخوات واصحاب وجيران

فيلم «حين ميسرة»

- هل الشيطان فعلًا موجود؟

- كما أنك موجود

- وهل يمكن رؤيته؟

- بالتأكيد مثلما أراك!

- ولكن كيف؟

- هل لديك مرآة في البيت؟

- ومَن ليس لديه مرآة في البيت؟

- إذن اذهب وانظر إلى نفسك!!

- هل تعني أنني أنا الشيطان؟!

- لم أقل هذا!

- إذن كيف سأراه وأنا لن أرى سوى نفسي؟

- سترى انعكاسك؟

- وما الفرق؟

- سترى الشيطان كما يراه الآخرون؟

- هل يراني الآخرون كالشيطان؟

- أجل، مَن يكرهونك!

- ألا يقولون إن الآخرين هم الجحيم!

- ومَن يتسبب في الجحيم؟

- الشيطـان!! إذن فالآخرون هم الشياطين!

- عندما تتحول حياتك لجحيم بسببهم

- إذن فالشيطان هو أنا وأنت!!!

- ماذا تعني؟!!

- أي أنه من الممكن أن يكون الشيطان أي شخص يكرهه أحد ما!

- بل قد يكون هو الشخص عندما يكره نفسه!

- وبالأخص حينما ينظر في المرآة، لأنه يراه!!

- ..!

- ماذا لو أحببنا الشيطان؟

- لن يعود شيطان.

- ماذا سيصبح؟

- الشيطان هو المكروه أي لا يُحَب، فإن أحببته فليس ذلك بالشيطان!

- فهمت، هو والكره متلازمان!

***

عقدة لوقيوس أو اللوقيوسية

لا يهمني المال، ما يهمني هو أن أبدو رائعة

مارلين مونرو

اللوقيوسية مصطلح اشتققناه من اسم لوقيوس بطل رواية الحمار الذهبي لـ«أبوليوس»، فلوقيوس بسعيه لتعلّم السحر سيتحوّل لحمار بسبب خطأ صديقته فوتيس، شاقًا بذلك أحداث الرواية. ومُذّاك سار لوقيوس يرى نفسه كما يقول «أنا الإنسان الطُلّعة المتشكل في صورة الحيوان»(1) كارهًا بذلك مظهره ومُنطلقًا في البحث عن وردة يلتهمها في سبيل استرجاع طبيعته الأصلية الجميلة. نجد اختيار الكاتب للوردة نظرًا لما تمثله كرمز للجمال في التراث الشعبي، وبالحديث عن الوردة وعلاقتها بالجمال نلاحظ كذلك في قصة التاجر الذي دخل قصر الوحش فأكل من طعامه وأخذ من ماله، لكن ما إن قام باقتطاف وردة من حديقته حتى انقض عليه الوحش محاولاً قتله، فالورود هنا تعويض عن جماله المفتقد الذي أحسّ بأن التاجر سيسلبه له بأخذه واحدة.

رغم أننا نتحدث هنا عن قصص خيالية إلاّ أننا نرى كثيرًا من البشر مُشابهين لهذه الشخصيات الفنتازية، دون أن نشير بذلك لمن يعانون من تشوهات أو أمراض جلدية، إنما لأشخاص عاديين غير راضين عن مظهرهم الخارجي، مهوسين بالجمال والتجميل لأقصى حد، الأمر الذي يكشف لنا عن عقدة نفسية. فبماذا نفسر شعور «البنت أن مستقبلها في الحياة يتحدد حسب طول أنفها واتساع عينيها وامتلاء شفتيها. وحينما تجد أن أنفها أطول أو أقصر من اللازم» فـ«تشعر بالخجل من أنفها وتحاول أن تخفيه من حين لآخر بحركة لا إرادية»، زيادة عن تبليل «نفسها بالعطر عدة مرات كل يوم» حتى ليمكنك أن تشمه على بُعد 10 أمتار. وأيضًا من «ترى أسنانها بارزة أكبر مما يجب فتمنع نفسها من الابتسام والضحك، وإذا حدث وضحكت فهي تزم شفتيها أو تضع يدها على

فمها»(2)؟؟ وهي أمور مشابهة لما كان يحدث مع لوقيوس باشمئزازه من أذنيه الطويلتين وأنفه الكبير وأسنانه المخيفة.

فإذا كنا كشفنا بهذا التساؤل عن بعض أعراض هذه العقدة عند النساء، فبالنسبة للرجال سنترك إحدى المشتغلات بصالون للتجميل لتصف الأمر كالآتي: «هناك من يقوم بإزالة الشعر الزائد في الحاجبين، ويخصص ميزانية مهمة لاقتناء مسحوق البودرة والكريم الخاص بمحاربة التجاعيد والهالات الداكنة والبقع الغامقة وعلامات الانتفاخ تحت العيون. ثم قلم العيون وماسكارا الحواجب والرموش والشوارب، كما بدأ بعضهم يستعمل نوعًا من السيروم بغية تكبير الشفتين»، علمًا بأنها تتحدث عن «نخبة من رجال المجتمع الاقتصادي والسياسي بمختلف أعمارهم». وبحكم تجربتها العملية وخبرتها في هذا المجال، فقد استطاعت أن تكشف عن الأسباب الدافعة لذلك بقولها: «بعض هؤلاء الرجال يعتقد أن المجتمع لن يتقبله ولن ينظر إليه بالشكل المطلوب طالما ظل على حاله»، كما ظل لوقيوس يحاول التخلص من مظهر الحمار حتى يتقبله المجتمع كإنسان، فتضيف «نراه يلجأ لتغيير مظهره من أجل الحصول على ثقة الآخرين وكسب احترامهم وإقامة علاقات معهم»(3)، وهو ما يتجلى بوضوح في صراحة النموذج التالي: « أفعل ذلك لأكون أكثر إشراقًا وأكثر جاذبية للفتيات، وأعتقد أن السبب الرئيسي لتأنق الرجل وإقباله على الظهور بصورة لائقة ومتميزة هو لفت نظر المرأة، أو البحث عن حبيبة»(4). وبالعودة للوحش في القصة نراه قد عفى عن التاجر ونسي أمر الأزهار لدى معرفته أن له فتاة حسناء، بل وصل به الأمر حد وضع قصره وكافة ممتلكاته تحت تصرف هذه الحسناء بما فيها أزهاره التي يقيم عليها الدنيا.

من هذا المنطلق، نرى هوس الإنسان الزائد عن الحد بمظهره، إنما الغرض منه كسب اهتمام وقبول الآخرين، فلا يتسنى له تحقيق ذلك إلا بوجود مَن يؤكد له ذلك وهو ما نلحظه في سؤال الوحش للحسناء: « قولي لي، ألا تجدينني

قبيحًا؟» رغم تصريحه: «أنا أعلم جيدًا أنني لست سوى وحش»، «أنا مجرد أبله، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أنني مُجبر»(5)، مع ذلك ففي كل يوم «قبل أن يذهب للنوم، يأتي ويطلب من الحسناء أن تصير زوجة له، فيعتصره الألم عند رفضها للطلب»(6)، وهو نفس الألم الذي يعتصر البعض عندما تُرفض طلباتهم للزواج أو إقامة علاقات عاطفية، بل يمكن أن يقعوا في اكتئاب. يلجأ الشخص هنا لحيلة دفاعية بادّعاء أن الجمال هو جمال روح، كما فعل الوحش بقوله للحسناء: «لدي قلب جميل، لكنني وحش»(7) أو رغم أنني وحش. لكن ما يفوتنا هو أن عقل الإنسان يصعب عليه تقبّل موضوع مُحمّل بالتناقض، لذلك فإنه يُعمّم إما بتغليب الأمور الجيدة فيرى الموضوع جميلاً، أو بتغليب الأمور السيئة فيراه قبيحًا. نوضح ذلك بمثال نراه في الشخص الذي يجد شريكه من أجمل الكائنات فما إن يحدث خصام حتى تنعكس الرؤية بل ويستغرب كيف كان يعشقه، وهو ما يحدث كثيرًا في أمور الطلاق وانفصال الأحبة. وهذا ما حصل مع عطيل/أوتلو الذي كان يعترف بجمال زوجته: «أواه، ليس في العالم امرأة أعذب منها»(8)، فما إن شك في خيانتها حتى صار يراها كـ«بغي منحرفة بل غُرفة سوء مقفلة على أسرار نجسة»(9). وما شكُّهُ إلا بسبب عقدته اللوقيوسية التي تظهر لنا وهو يناجي نفسه: «لعلها مِلك إلى غيري لأنني أسود وليس في كلامي من الرقة والتزويق ما في أولئك المتحذلقين.. أو لأنني في أول مهبط السنين»(10).

نجد لدى ثيودور رايك أن «الحب لا يكون ممكنًا إلا حين تعزو إلى شخص آخر قيمة أسمى من القيمة التي تعزوها إلى ذاتك، وحين تراه أو تراها، من نواح متعددة على الأقل، شخصية متفوقة عليك»(11)، وبذلك يمكننا القول أنه «عندما نحب امرأة جميلة ونشتهي أن نتزوجها إنما نفعل ذلك بفعل هذه النزعة التي تحملنا على أن نقرن ذاتنا بذات جميلة فنرتفع في ذريتنا بارتفاعها»(12)، لكن التباسًا يظهر هنا إذا نظرنا كيف «يحكم المجتمع على جمال المرأة بمقاييس

جسمية فحسب»، ما يجعل جمالها «مرهونًا بحجم أنفها وحجم شفتيها ونهديها وردفيها»(13)، فـ«تصبح بعض ملليمترات تنقصها الرموش عن طولها المعتاد مشكلة حادة»، فـ«كم من فتاة ترعبها بضع قطرات مطر لأنها تفسد تسريحة شعرها»، و«كم من امرأة لا تستطيع أن تواجه الناس بغير أن تضع على وجهها المساحيق والظلال والخطوط»(14). وما ذلك سوى لكي تكون تلك المرأة الجميلة والمرغوبة، وهذا ما أكدته المغنية بريتني سبيرز في حديث لها مع مجلة أوكيه الأمريكية لدى قولها: «تكذب المرأة إذا قالت إنها لا تحب أن تشعر بأنها جذابة ومثيرة، نحن النساء جميعًا نحب أن نشعر بأننا جذابات ومثيرات». لكن السؤال الذي ينبثق هنا هو: كيف يُعقل أن يحبك الآخر وأنت تكره نفسك؟ كيف سيجدك مثيرًا وأنت ترى نفسك قبيحًا؟

«إنكم لا تطيقون أنفسكم، ولا تحبون أنفسكم بما فيه الكفاية» لذلك «تَدعون إليكم شاهدًا عندما تريدون الكلام بالخير عن أنفسكم؛ وعندما تُفلحون في استدراجه لكي يُحسِن الظن بكم، يَحسُن ظنكُم بأنفسكم أيضًا»(15).

فينكشف لنا الرجل (اللوقيوسي) وهو يُلح:

قولي «أحبك» كي تزيدَ وسامتي فبغيرِ حبّكِ لا أكونُ جميلا

قولي «أحبك» كي تصير أصابعي ذهبًا وتصبحَ جبهتي قنديلا

قولي «أحبك» كي يتمَّ تحولي..

الآن قوليها، ولا تتردّدي بعضُ الهوى لا يقبلُ التأجيلا(16).

وتنكشف المرأة (اللوقيوسية) وهي تعترف:

ولأنك تحبُني، فإن العالمَ صار أكبر

والسماء أوسع والبحرَ أكثر زرقة والعصافير أكثر حريّة

وأنا ألف.. ألف مرّةٍ أجمل(17).

لكن ما إن يرحل الشاهد (الحبيب) حتى يقع كلاهما منهارَين كما وقع الوحش مغميًا عليه لدى ظنه أن الحسناء هربت!!

حتى أريتا فرانكلين تُغني متساءلة حول الأمر:

«اه ياحبيبي،

ما الذي فعلته بي

أنت تجعلني أشعر بشعور جيد

أريد فقط أن أبقى بقربك

أنت تجعلني أشعر أنني حية..

تجعلني أشعر كأنني امرأة طبيعية»(18).

فيرُد نيتشه: «إن قلة حبكم لأنفسكم تجعل لكم من الوحدة سجنًا»(19). فالسجين هنا يرى نفسه منبوذًا ولن يتحرر إلا إذا أحبه شخصًا ما، ورحيل هذا الشخص يعني العودة للسجن. ولا يتوقف نيتشه عند هذا الحد بل يرد كذلك على جميع الأمثلة التي تفيد «أحب الآخر كما تحب نفسك»، بقوله: «لتحبوا بالنهاية قريبكم محبتكم لأنفسكم، لكن لتكونوا لي أوّلًا أولئك الذين يحبون أنفسهم - محبة كبرى يحبّون»(20). فإذا أردت أن يحبك الآخرون يلزمك أن تحب نفسك أولاً، أن تحب نفسك بطريقة طبيعية حتى ترى نفسك شخصًا طبيعيًا.

***

صراع الوجه مع البثور

إن الحُسن الفطري وحده هو الذي يبهرنا في الوجه بخلاف بقية الأعضاء حيث ينوب عنه رونق اللباس

لوكيوس أبوليوس

نظرًا للقيمة الكبيرة الممنوحة للوجه في الحياة المجتمعية، فإن أي ضرر أو سوء يلحق به يؤثر على الإنسان. فإن كان من المعلوم أن الضرر لا يؤثر على صحته فإنه يؤثر على نفسيته، بل ويؤثر بشكل سلبي. أكان زوال اللون كالبرص والبهاق، جروح وندب متخلّفة عن حوادث، أو حب شباب وهو ما يهمّنا هنا لأنه الأمر الأكثر انتشارًا من سواه. فرغم العديد من الكتابات والبرامج التلفزيونية التي تناولت مشكلة البثور على الوجه، إلا أنه ظل أمرًا غير واضح يلفه الكثير من الغموض، زيادة عن عدم تقديم تفسير واضح أو علاج فعّال.

عند مرحلة البلوغ والتّغير الهرموني الذي يعرفه الإنسان حتى يصبح جسده قادرًا على القيام بوظيفة النسل، يتم إفراز الأندروجينات من الغدد الكظرية والتناسلية والتي تساهم في زيادة حجم الغدد الدهنية (زيادة على وظائف أخرى)، وهذه الأخيرة ملتصقة بجريبات شعرية موجودة تحت سطح الجلد. يمكن أن نتخيلها ككيس صغير موجود خلف البشرة، فتقوم الغدة الملتصقة به بسكب الزهم (سائل دهني) ليصعد هذا الزهم لسطح البشرة لترطيبها حتى لا تجف، ويصعد عن طريق شعرة متخفية تحت سطح الجلد (موجودة داخل الكيس) ليخرج من المسام وهي الثقوب الصغيرة في الوجه. دون أن ننسى أنه يمر بطبقات الجلد ليطرد معه الخلايا المبطّنة الميّتة، هذه المادة التي تطفو على سطح المسامات تتفاعل مع الأكسجين فتتحول لِلون أسود بسبب عملية التأكسد وهي ما يسمى بالرؤوس السوداء والتي تظهر بوضوح على سطح الأنف وجانبيه بسبب توسّع المسامات هناك، زيادة على أن هذه المادة تمتزج بالأملاح المتبقية

من تبخُر العرق، والغبار إن لم نقل مستحضرات التجميل والكريمات التي تحتوي على نسب من الدهون. ما يشكل خليطًا متماسكًا لغلق المسام.

وحينما تُغلق المسام، مع العلم أن الغدد تستمر في إفراز الزهم الذي لا يجد مفرًا للخروج، فيتراكم في ذلك الكيس زيادة على الخلايا الميتة، فينتفخ الكيس كالبالون ويدفع طبقات الجلد، فتظهر حبة صغيرة وتبدأ بالتضخم لأن الجسم يدفع بالوسط البكتيري لإخراجه من الجسد، يمكن أن نوضح ذلك لدى من تنكسر شوكة صغيرة في جلده فتظل قطعة منها داخله. لكن الجسم بفضل جهازه المناعي يقوم بمحاصرة الجسم الغريب، فتنمو بثرة في مكان الشوكة وذلك بسبب تدخل المناعة ومحاربتها للبكتيريا التي أدخلها الجسم الغريب، فالبثرة هنا ليست سوى الوسط الذي يحاول الجسم إخراجه (قد نرى تكوّن بثرة حول قِرط في الوجه أحيانًا)، فيظهر رأس الشوكة بعد أيام ويخرج من وسط هذه البثرة (كخروج غُرز الجراحة)، كما يظهر زر أصفر في حبوب الشباب وهو القيح الذي نتج بسبب اختلاط الخلايا البيضاء الميتة مع باقي المكونات. وغالبًا ما يتدخل الشخص هنا لتفريغ الحبوب وعصرها، وبما أن سطح البثرة جد حساس فإنه يتسبب في جعلها ندبة ستتحول إلى اللون الأسود إذا تعرضت لأشعة الشمس وقد تترك حفرة صغيرة أحيانًا إن كانت البثرة كبيرة بعض الشيء. فالبثرة هنا صارت لا تختلف عن الجرح كثيرًا. فلو تُركت سيجف القيح وتسقط البثرة لوحدها أو نتيجة احتكاكها بسطح ما، ويمكن أن تظهر بعض القشور مكان البثرة، إنما هذا مجرد تغيّر وتجدد سطح الجلد.

إذا نام شخص واستيقظ فوجد ثلاث حبات على وجهه، وتم إخباره أنها بسبب لدغة ناموسة، فإنه سيتركها لعلمه بأنها ستختفي في أقل من 24 ساعة. لكن إن لم يخبره أحد بذلك، سيجتهد بدهن جميع الكريمات التي يجدها ولا يعرف أصلاً عن مكوناتها شيئًا لاعتقاده بأنها حب شباب، بل حتى لو كانت كذلك فإنها لاتتجاوز 3 أيام رغم أن من معارفنا من يتشبث بأنها تستمر لأكثر من أسبوع.

إلا أن للجسم البشري قدرة عجيبة على تدارك الاختلالات وسرعة في ترميمها، فلا يحتاج لمساعدة إلا إذا عجز أو صعب عليه التغلب على نوع بكتيري. لكن التدخل المعني هنا بعصر الحبوب وجرحها أو توفير جو مناسب لتكاثرها بدهن كريمات غريبة، يعيق الجسم من التخلص منها بسرعة. فكيف يتم تفسير عملية وضع مستحضر على الوجه: ما يمثل قناعًا والخروج للتجوال به لأكثر من ست ساعات زيادة عن الغبار والتعرق طوال تلك المدة؟ هذا إن لم نقل إنه قد ينام بقناعه! فهنا يجب ألا تنمو البثور بل يجب أن تظهر أهرامات مصرية. فحتى بالنسبة للكريمات المنظفة للجلد كدواء البهاق وما سواه، فصِحيًا يجب ألا تتجاوز دقيقتين أو ثلاث على سطح البشرة.

قد بيّنا أن سبب البثور هو انسداد المسامات أو دخول جسم غريب كاللعاب الذي تتركه الناموسة بعد اللدغ، والذي يساعدها في إيقاف تخثر الدم حتى يسهل امتصاصه، وللعلم هي تحتاجه لوضع البيض وليس للتغذية لأنها تتغدى على الأزهار. وكما سبق فإن هذا اللعاب كجسم بكتيري غريب، يتدخل الجهاز المناعي لإخراجه وإثر ذلك تحدث الحكة والالتهاب أو الاحمرار الذي يصاحب البثرة (بأنواعها). أما عن أن نوع من المأكولات يتسبب في ظهورها، فكذلك مشاهدة فيلم Twilight قد تساهم في ذلك!

بعض أطباء «الجلد» يُرجعون سبب ظهورها للتوتر والانفعال، فيبرهنون بذلك أن ذكاءهم يأتي بعد ذكاء الغِربان، وليس بعيدًا أن يقول آخرون إن السبب قد يكون عقدة أوديب أو إلكترا!!! وهذه هي أغلب إجابات المشتغلين بالطب العام، الذين يرجعون سبب أغلب الأمراض للتوتر والانفعال عند عجزهم عن إيجاد تفسير واضح، أو يبعثونك للمختص إن كانت الحالة صعبة عليهم، فلا تختلف مهنتهم عن مهنة سكرتيرة غير أنهم يرتدون يوميًا «فستان أبيض» ويمتلكون بعض الأجهزة التي لا يعرفون مَن اخترعها.

أما عن أن لمس البثرة يزيد من حجمها أو يُهيجها كأنها ثدي مُراهقة أو قضيب

ذكري! فما يحدث هو أن جلد البثرة حساس فيزداد احمرارًا لدى لمسها، بل يسهل جرحها أو خدشها إثر دفعها أو محاولة تفريغها (كما ذكرنا) لتتحول لندبة، فهي تكبر دون حاجة للمسها؛ لأن الكيس (البصيلة) ما زال ينتفخ بسبب الإفرازات الدهنية التي لا تُصرّف.

إن النصح بأن هناك مستحضرات تخلصك منها، فهذا ما لم يثبت فعليًا. فهناك ما لا يحصى من الكريمات التي يدّعي أصحابها أنها كذلك، وهذا ما دفع بالكثير من المنتديات والمجلات النسائية لاختراع وصفات طبيعية كدهن الخضار والفواكه أو حتى الحساء والزبادي، والتبخير بسوائل وأعشاب سحرية أو أكل عقاقير أو مستحدثات وما شابه ذلك من تراهات! هذا لأنها مختصة في نشر أروع تفاهات العالم. فما الفرق هنا بين مَن يجرّب هذه الأمور على وجهك وبين من يتبوّل عليه؟!

فمما سبق نعلم أن سبب البثور هو انسداد المسام، لذلك يجب على الشخص أن يعمل على تنظيفها وعدم السماح للمواد المتجمعة على سطح الجلد بإغلاقها، وذلك بمسح الوجه عدة مرات في اليوم بالماء فقط، دون حاجة لكريمات أو زيوتات أو حتى صابون. فالماء كاف لتنظيف الوجه وجعل البشرة نضرة، أفضل من مساحيق باهظة الثمن تحولها لبشرة بهلوان! فحتى واقي الشمس الذي يضعه الإنسان مُدّعيًا أنه لحماية بشرته، إنما يضعه حتى يظل أبيض كالشبح وكأنه سيتقاضى راتبًا شهريًا إذا ظلت بشرته بيضاء! فالجلد تلقائيًا يميل للسمرة نتيجة تعرضه لأشعة الشمس باستمرار، حتى يحمي البشرة من الضرر. وهذا هو سبب الفرق بين ألوان البشر، فأثر عوامل البيئة المتواجدين بها ونسبة الأشعة الفوق البنفسجية التي يتعرضون لها يتغير لون الجلد، وينتقل كذلك وراثيًا عبر الأجيال نتيجة الزمن وعوامل التطور.

قد يتساءل شخص ما هنا بأن هناك من لا يقومون بغسل أو مسح وجوههم بالماء (المتسولين والمشردين) ومع ذلك لا تظهر البثور على وجوههم؟

نقول إن مثل هذه النوعية لا تستعمل مستحضرات كيماوية زيادة على أن أغلب من تراهم يكونون كبار في السن، ما يعني أن البشرة جافة بسبب نقص إفراز الدهون. ويجب ألا ننسى أن البثور تظهر لدى كل شخص كحبة هنا أو هناك بفترات متباعدة قد لا تبدو للعيان أو تختفي بسرعة، فما يلفت الانتباه هي كثرتها وتجمعها أو تحوّلها لقشور وندب، بل حتى المشاهير تنبث لهم بثور غير أنهم يخفونها بالبودرة كما يفعل الجميع، زيادة على أنهم يظهرون في التلفاز تحت أضواء ساطعة تخفي عيوب الوجه. بل تظهر حتى لدى الأطفال رغم أنه أمر نادر إلا أنه وبعد البلوغ كما قلنا تتكاثر على مستوى الوجه والصدر والظهر والردفين أو في الجوانب الداخلية للفخدين، لكن الوجه هو أكثر ما يُهم؛ لأنه بطاقة تعريف ليقبلنا الآخر، وبالأخص بالنسبة للأنثى والتي تظل عاجزة عن البوح:

«أحبني كما أنا بلا مساحيق.. ولا طلاء

أحبني بسيطة، عفوية..

كما تحب الزهر في الحقول، والنجوم في السماء..

أحبني لذاتي. وليس للكحل الذي يمطر في العينين

وليس للورد الذي يلون الخدين..

أحبني.. بوجهي الضاحك، أو بوجهي الحزين..

أحبني.. حضارة، وقيمة، وموقفا

أحبني.. شريكة في الرأي والتفكير..

لا دمية من ورق..أو حبة من عنب تؤكل في السرير»(21).

***

عقدة لوقيوس والنرجسية

وربما نظرت إلى المرآة

قبل خروجها من نفسها، وتحسست أجّاصتين كبيرتين

ثمؤجان حريرها، فتنهدت وترددت:

هل يستحق أنوثتي أحد سواي

محمود درويش

كنا قد بيّنا سابقًا (22)أن كُره الإنسان لمظهره وخوفُه الدائم من أن يبدو بشكل غير مرغوب، يكشف لنا عن عقدة: سمّيناها عقدة لوقيوس. وكتعويض عن هذه الأخيرة فإنه ينشغل بكل ما له علاقة بالجمال والتجميل لدرجة الهوس. من هنا سنسعى لزيادة توضيح اللوقيوسية كعقدة نفسية واجتماعية تتداخل فيها إحساسات الرفض الذاتي والخوف من رفض الآخر، فهذا الآخر هو من يجعل العقدة هنا تنضج وتتضخم.

إن كانت الوردة بالنسبة للوقيوس الحمار والوحش في قصة الحسناء، تمثل رمزًا يتم فيه تعويض الجمال المفتقد، فإنه لدى بابتيست غرونوي نرى العقدة قد تضخمت بتجاوزه الرمز والتماهي مع الأصل (الجمال الإنساني)، وذلك بتدمير هذا الأصل كمحاولة تملّكه والسيطرة عليه. ونزعة التدمير لديه لم تتولد إلا بسبب إحباطه الشديد، وهذا ما سنسعى لتوضيحه.

غرونوي الذي يمتلك موهبة في تمييز الروائح، سيتوجّه لتعلّم كيفية صناعة العطر. ونعلم أن للعطر دائمًا علاقة بالآخر، فبالعطر نجذب انتباهه ونجعله يقبلنا، وهذا أيضًا ما ظنّه غرونوي عندما «لاحظ أن الهدف من العطر هو أن يكون مفعوله فاتنًا وجذابًا»(23). وبذلك سينتقل من استخراج العطر من الأزهار (الرمز) إلى استخراجها من النساء (الأصل)، وليست أي نساء، إنما ذلك النوع

الذي يصفه بتعبير خرافي: «ذات جمال رفيع، تنتمي إلى ذلك النوع الناعس من النساء الذي يشابه العسل الأسود، طريًا وحلوًا دبقًا للغاية، وبمقدور امرأة من هذا النوع بحركة لزجة، بتلويحة شعر، وبنظرة واحدة من عينيها كضربة سوط بطيئة أن تسيطر على المكان كله، وأن تبقى في الوقت نفسه هادئة في مركز الإعصار، وكأنها لا تدرك قوة جاذبيتها التي تشد إليها أشواق ونفوس الرجال والنساء على حد سواء ودون مقاومة»(24)؛ وما سبب هذه الرؤية القينوسية للنساء إلاّ رؤيته اللوقيوسية لنفسه فقد «كان قبيحًا، ولكن ليس إلى درجة أن يرتعد الإنسان من بشاعته»(25)، بل حتى في أحسن حالاته «لم يكن شكله مميزًا، ولا حتى جميلًا، لكنه لم يكن بشعًا أبدًا.. باختصار بدا كآلاف الناس الآخرين، وإن نزل إلى الشارع فلن يلتفت إليه أحد»(26)، وهنا نرى أن أكثر ما كان يؤلمه أنه «منذ صغره اعتاد غرونوي على أن الناس الذين يمرون بجانبه لا يأبهون به على الإطلاق»(27). وهذا ما دفعه لامتهان العطور, كي يصنع واحدًا «من يشمه سيُؤخذ ويُسحر، وسيحبّ مُبدعه غرونوي من كل قلبه. وطالما هم تحت تأثير عبقه، فعليهم أن يحبوه، لا أن يقبلوه كواحد منهم فحسب. عليهم أن يحبوه حتى الجنون، حتى التضحية بالذات، وأن يرتجفوا من النشوة وأن يبكوا من الفرح دون أن يعرفوا السبب، وعليهم أن يركعوا أمامه كما يركعون أمام بخور الرب المقدس»(28). نرى أن تضخم اللوقيوسية يكشف لنا عن بروز نرجسية مرضية ظلت تنمو في الخفاء. وما اختيار غرونوي لذلك النوع الفاتن من النساء إلا لمحاولة التماهي معهن، وذلك حتى ينجذب إليه الناس كانجذابهم لهاته النسوة وأكثر، فبالنسبة له، لا يكمن سر جاذبية الواحدة منهن في «مرآها ولا كمال جمالها الظاهري، إنما عبقها الرائع الذي لا يُجارى»(29)، لذلك كان يستهدِفُهن في القتل حتى يسلبهنّ ذلك السحر الذي يمتلكنه ويمنحه لنفسه.

نجد لدى حالات الرهاب الاجتماعي ترسبات من اللوقيوسية، فخوف الإنسان من الأماكن التي يتواجد بها الآخرون وخجله من إبداء سلوك يجعله يبدو

كالغبي، ليست إلا أعراضًا عن عقدةٍ كُره لشكله وخوفه من أن يراه الآخرون كما يرى هو نفسه وبالتالي يكرهونه، أو لا يقبلونه بصفته كائنًا غير جميل، رغم أن البشر لا ينفرون من الشكل بقدر ما يُنفِّرهم السلوك، لكن اللوقيوسي توحي له نرجسيته المتخفية بأن الجميع يراقبونه، وينتظرون منه أقل هفوة حتى يسخروا منه، معتقدًا أن لا شغل للآخرين إلا هو، يتربصون به كي يحتقرونه لأنه كامل وأفضل منهم. لذلك يسعى كي يبدو «كامل» وبشكل يثير الإعجاب على الدوام. أما من جهتنا، فنقدم لمن لهم مثل هذا الاعتقاد «خاصية نفسية» معروفة:

قد تعتقد أنك أهم شخص في العالم، لكن لا تتصور أن الآخرين يرونك بنفس الطريقة؛ لأن أهم شيء بالنسبة لهم قد يكون ذواتهم أو أطفالهم.

فأغلب البشر إن لم نقل جميعهم نرجسيون، غير أنهم يتفاوتون في الدرجة، فاعتقاد شخص أنه أفضل عدّاء على المستوى الدولي أو المحلي، والواقع يثبت ذلك من خلال فوزه وإنجازاته، فتلك نرجسية طبيعية. أما حين يعتقد شخص أنه أشهر ممثل على نفس المستوى وقَدَمه لم تتجاوز مسرح الحي، ما يجعله معروفًا فقط بين أصدقائه وعائلته، فتلك نرجسية مرضية.

نرى المريض نرجسيًا، كالطفل الذي يُمركز العالم حوله معتقدًا أنه لا وجود للآخرين إلاّ للاهتمام به، فـ«يبقى الخوف المسيِّطِر» عليه «هو عدم الاهتمام به (أو بها)، وكل خيبة أمل عاطفية تلقى شعورًا حادًا. يؤدي هذا الخوف إلى البحث المستمر عن ضمانة غير ممكنة، وإلى استجواب يُطرح على الآخر لفظيًا أو بالنظر للتعرف إلى مدى حبهم له»(30). وبالعودة لغرونوي نرى نفس الأمر، فكلما «أحس بأن له ثمة تأثيرًا على الآخرين.. كان يغمره شعور طاغ بالفخر والاعتزاز، عندما مرّ بامرأة منحنية.. لاحظ كيف رفعت رأسها لحظة لترى من القادم.. والرجل الواقف بظهره التفت إليه وتابعه لبرهة بنظره... عبر كثير من مثل هذه اللقاءات.. أضحى غرونوي أكثر ثقة بنفسه، وبالتالي أشد جسارة»(31)، ولم يتوقف عند لفت انتباه الآخرين، بل بسبب تضخم عقدته

صار همه هو أن يصير «بإشارة منه، لأن ينكروا ربهم، ويعبدوه هو، غرونوي العظيم»(32). فالحرمان والإحباط الشديدان اللذان أحس بهما وعاشهما، هما الدافع لبحثه عن تعويض هائل.

نجد لدى البعض وإن لم تكن نرجسيتهم تخطت الحد مثلما حدث مع غرونوي، غير أنها تظهر لنا مشابهة بشكل مخفف. نرى ذلك في اعتقادهم أنهم يمنحون الشرف للآخرين لدى مصافحتهم أو التعرف عليهم. كبعض الأسر أو العائلات التي تحسب أن كل من يتناسب معها أو يقترن بأحد أفرادها قد نال شرفًا عظيمًا! أو عند بعض المراهقين، كالأنثى التي تعتقد أن كل من يراها سيقع في غرامها، أو الذكر الذي يحسب نفسه دون خوان قادرًا على سحر جميع النساء. والسبب في ذلك انتقالهم من مرحلة الطفولة بفنتازيتها، والدخول في مرحلة النضج بتغيراتها الهرمونية، فتمتزج أحلامهم الخيالية برغباتهم الجنسية. هذا دون ذكر من يدّعون البركة والقدرة على الشفاء باللمس أو التقبيل!!

يمكن أن نقول إن اللوقيوسي شخص يحب نفسه لدرجة كُرهِها إن لم تكن بالمستوى أو الصورة التي رسمها لها في مخيلته، فنجده يصيح داخليًا:

«علي أن أبدو إنسانًا مهمًا لأنني لست شيئًا

أريد أن أكون مركز العالم لأنني منبوذ(ة) من الجميع

علي أن أحب ذاتي قبل كل شيء لأنني أكره ذاتي

علي أن أضخم ذاتي لأنني فقدت ذاتي»(33).

فإن كنا ختمنا سابقًا بالقول بوجوب أن يحب الإنسان ذاته بطريقة طبيعية، إنما ليتحقق له قول (إدراك): «علي إذن أن أكون، في نطاق معين، موضوع اهتمامي الأول. وعلي أن أحمي صحتي، وتوازني، وسعادتي، من أجلي» ومن أجل غيري، «إنني أحب الآخرين، ويروق لي كذلك أن يحبني الآخرون. ومع هذا

فلا أشعر بأي حصر إذا لم يحبوني».

فـ«قوام النرجسية السوية إذن أن يهتم المرء بذاته اهتمامًا موضوعيًا. لا اهتمامًا تحت ضغط الحصر أو الخوف من الغير»(34).

***

القبول والرفض الاجتماعي

كل هؤلاء الرجال الذين يتزاحمون على كسب ودّها، كانوا يتعذبون مثلها، ويضنيهم هذا الشعور المدمّر، هذا الشعور بأننا لا نعني لأحد شيئًا على وجه هذه الأرض

باولو كويلو

أكثر ما يرفضه الإنسان هو أن يكون مرفوضًا، بل قد يرفض نفسه إن وجد (توهم) أنه مرفوض. فمنذ سنينه الأولى يتعلم كيف يلفت انتباه الآخرين إليه، حتى يتمكن من تحقيق وإشباع حاجاته الضرورية. فهو كرضيع(ة) يصرخ تلقائيًا ما أن يشعر بالجوع أو بالألم الذي قد تسببه الحفاضات مثلاً، ثم وهو كطفل(ة) قد يلتزم بسلوكات معينة يستلطفها الأهل حتى ينال هدية ما، وهو كشاب(ة) يتقمص شخصية معينة أو يشكلها بما يوائم الآخرين (وخاصة الجنس الآخر) حتى لا يعتبر كائنًا غير مرغوب فيه، لتستمر شخصيته نسبيًا لباقي سنين عمره مع تغيرات طفيفة طبعًا حسب الظروف، أو مع تغيرات جذرية قد تقلب شخصيته بكاملها والسبب قد يكون أزمات ومشكلات اجتماعية.

الرضيع لا يهتم بالرفض أو القبول، فعملية الإدراك لديه لم تتطور لتحليل هذه المفاهيم، كل ما يهمه هو إشباع الحاجة الضرورية. أما الطفل فيتوصل عبر تجاربه البسيطة خلال سنوات الطفولة الأولى، زيادة على تطور القدرة المعرفية التي تمكّنه من تحليل معطيات الواقع، يتوصل إلى إدراك أن قبوله يعني أنه محبوب ورفضه يعني أنه مكروه، ما يعني أنه في الحالة الأولى قد يستجاب لطلباته، أما في الحالة الثانية فسترفض. غير أن سلوك القبول والرفض الموجه نحو الطفل لا يهمه إلا بالنسبة للمقربين لديه كأمه وأبيه وإخوته، وباقي أفراد العائلة كالأعمام والخالات ..إلخ (في بعض الحالات). هذه المجموعة تهم الطفل؛ لأنها متعلقة بتحقيق رغباته، فهم من يقومون بإنجاز الأمور التي تخصه، لذلك قد

لا يهمه قبول أو رفض كل من هو خارج هذه الدائرة طالما لا تربطه بالطفل أية علاقة لتحقيق مُتطلب. ليظهر لنا هنا الأصدقاء كأطفال الحي أو أبناء الجيران أو رفاق الفصل، كجماعة يتشارك معها عدة نشاطات تحقق متعة وتسلية زيادة على تطوير مهارات التفاعل الاجتماعي، يهمه قبولها للتعبير عن ذاته وتحقيق متعة الانتماء والتشارك. وغالبًا ما يتوجه الطفل لأحد أقربائه لمساعدته في الاندماج ضمن إحدى هذه الجماعات إن رفضه أفرادها أو خاصموه أو حتى إن حدث وصعب عليه الانضمام بالبداية. دون أن ننسى أن من يبدون ذكاءً في هذه المرحلة العمرية، هم من يختلقون أكاذيب أو يبدون أمورًا لإبهار الأقران، ومثل هؤلاء يلعبون أدوارًا بارزة في مثل تلك الجماعات، هذا إن لم يتحكموا في أنواع النشاطات المتفق عليها بفرضها وتغييرها، أو قيادة الجميع في مغامرات طفولية! وهذا لا يعني أنهم من يصبحون في ما بعد قادة سياسيين أو ذوي أدوار بارزة في المجتمع، فلا علاقة لهذا بذاك.

مُذّاك يسعى الإنسان لقولبة شخصيته حتى يتمكن من الاندماج ضمن المجتمع كفرد مقبول، لإثبات نفسه كذات تمارس وجودًا، وكذلك للتمكن من استمالة الطرف الذي يساهم في تحقيق الإشباع الجنسي كمتطلب غريزي، هذا الأخير الذي يَنتظم (بعد التغيرات الهرموبيولوجية التي يعرفها الشخص) للميول العاطفية، ليشكلا معا (الجنس-العاطفة) دافعًا يحث صاحبه على سد هذه الثغرة الانفعالية بغرض تسكين الإلحاح الجنسي. وبالنسبة لدحض هذه النقطة وذلك بفصل الميول العاطفية عن الجنس كما يتم التعبير عنها بمصطلح الحب الأفلاطوني (الذي يتبرأ منه أفلاطون). نقول إن الجنس في مثل هذه الحالات يظل في مستوى الكبت، وذلك قد يكون راجعًا لرؤية الشخص للطرف الآخر من زاوية تلعب عدة عوامل فيها دورًا، منها الثقافة الشعبية والدين والإعلام وكذلك الكتابات التاريخية والأدبية والتي تُظهر أن الحب طاهر والجنس دنس أو خطيئة. فيحدث انفصام بالنسبة للمتأثرين بما سبق، فيحب الواحد منهم الطرف كمثير جنسي ويتجنب لمسه!!! ليتعلق بالوهم الذي رسمه وليس بالشخص. وقد

عبر الشاعر أدونيس عن هذا الأمر في أحد كتاباته بقوله إن العاشق لا يحب الشخص بل يتعلق بالوهم الذي بناه حول الشخص. ولهذا فإن الوهم باعتباره فكرًا منفصلًا عن المطابقة الواقعية، يحقق للشخص رفعة عن الواقع وعن الممارسة الجنسية التي تكشف وضاعته. وهذا سببه البرمجة الثقافية التي تفسر الحب والجنس انطلاقًا من الأساطير وليس من منظور علمي واقعي إنساني. بل حتى الحب من منظور سيكولوجي يعتبر وهمًا طوره الإنسان الحضاري!

وبالعودة لما يهمنا بهذا الموضوع وهو عملية القبول أو الرفض الاجتماعي، يمكن أن نوضح ذلك حسب قوانين السوق والإنتاج. فلنجاح عملية استهلاك منتوج معين يلزم أن يشتمل على ما يلمس ويداعب رغبات وميول الزبون، اختيار الألوان المعبرة والشكل المناسب أو الجذاب، زيادة على اختيار شخصية مشهورة للقيام بعملية ترويجه والتركيز على إظهار سعادة الشخص المصور في الإعلان لاقتنائه للمنتوج، أو إظهاره بأنه حقق رغبة وغالبًا ما تكون استمالة الجنس الآخر (والفضل يعود للمنتوج). وهذه هي الرسائل المتكررة التي تحاول الشركات الاستهلاكية أن توحيها للزبائن حتى تتم عملية الاقتناء دون وعي. فالزبون كمنوَّم (مغناطيسيًا) يسعى لتحقيق رغباته انطلاقًا من الرسالة المبثوتة في عقله «وهي اقتناء المنتوج». فالزبون يتماهى في عملية الاقتناء مع شخصية الإعلان (السعيدة، المتفوقة، المشهورة، اللافتة للانتباه)، وهذا هو المعنى المستخلص والدافع بالغالبية من الناس لإدمان المنتوجات الاستهلاكية التي لا يحتاجونها، وهو أنهم سيصبحون مثل شخصية الإعلان بعد الاقتناء!

نفس الأمر لا يختلف عن عملية القبول الاجتماعي، فالثقافة الشعبية تبث كذلك رسائل إيحائية لما يجب التوفر عليه ماديًا ومعنويًا حتى تحقق ذلك، دون أن ننسى ملاحظة الشخص لمجتمعه وإدراكه للمتطلبات التي ستضمن له قبولاً، والتي يراها في باقي أفراد المجتمع ممن نجحوا في العملية. لهذا قد نجد الإناث يتهافتن على توسيع منطقة الأرداف أو تكبير الأثداء، أو سعي للنحافة (بحسب

اختلاف الثقافات والمجتمعات)، والاهتمام بكل ما يتعلق بالتجمل والتجميل. ونجد الذكور يهتمون باستعراض المهارات الجسدية (كمال الأجسام مثلاً) واقتناء اللوازم المادية كوسائل النقل الخاصة (والفخمة)، ومحاولة رفع المستوى الاقتصادي، وكل ما يساعد على زرع القبول في المحيط. كل تلك الأمور السابق ذكرها تدخل في إطار الإغواء، بل نقول إن مختلف الأنشطة الحضارية كالرياضة والفن تعتبر من الأساليب الإغوائية. لا ننفي أن البعض يقدمون من خلالها رسائل إنسانية، إلا أنه يجب ألّا ننسى أن الدافع لممارستها بالبداية قد يكون الغرض منه التأثير وضمان القبول عند الآخر. لهذا نجد كثيرًا من الأنشطة المحددة بمختلف المجتمعات كالغناء والمسرح أو ممارسة رياضية معينة، هي التي تجذب الهواة أكثر من الأنشطة الأخرى، وهذا بحكم أنها تعتبر الأكثر قبولاً في المجتمع.

قد يفشل الشخص في عملية القبول: إما لعدم توفره على متطلبات النجاح (وهنا الأمر نسبي) لأن المعني قد يُعلّق عليها فشله، أو قد يفشل رغم توفره على ما يضمن له نجاحًا وهذا يشرح ما سبق. لكن من أجل زيادة التوضيح، يجب ألا نغفل نقطة مهمة وهي أن الرفض لا يعني رفض المجتمع للشخص بل قد يبدو الأمر بسيطًا، فبحكم أن الإنسان يركز على الأمور السلبية أكثر، فقد تحدث له عشرة أمور جميلة ومفرحة وما أن يحدث أمر واحد سيئ حتى يشوه بهذا (الحدث) الأخير يومه، ويشوه بهذا اليوم أسبوعه، ومن الأسبوع للشهر إلى السنة إلى المالانهاية! وكأنه محكوم بالمأساة، والمأساة هي رؤيته وتقييمه للأمور. فرفض لطلبه من شخص واحد (مثلاً) يعممه على العالم، حتى يدخل في اكتئاب وكره الحياة!

ونجد أفضل من عبّر عن الشخصية المرفوضة اجتماعيًا، هي الأديبة ماري شيلي في شخصية المسخ الذي صنعه الطبيب فرانكنشتاين، فوجد المسخ نفسه مرفوضًا من الجميع بسبب بشاعة منظره مما سبب له ألمًا، ليعود للبحث عن صانعه راجيًا إياه أن يصنع له أنثى تؤنسه وتبدد وحدته (تَقبَله). فرَفض الطبيب

طلبه لتظهر الميول العدوانية لدى المسخ، وذلك بوعد صانعه أنه سيكشف عن ميوله الإجرامية تجاه المجتمع الرافض، زيادة على انتقامه من رفض الطبيب للطلب، وهو ما سيقوم به بقتل زوجة الطبيب في ليلة زفافه لتبدأ المطاردة بينهما.

فنرى أن شخصية المسخ هنا تُعبّر عن الإنسان المرفوض، الذي يبدي عدوانًا تجاه المجتمع كمجرم أو منحرف، أو من يسعد بالمصائب التي تلحق بالآخرين. قد نجد الانتقام حتى على مستوى اللاوعي، وهو ما يمكن أن نكشفه في سب الذكور وشتمهم للإناث فيما يُعرف بالتحرش الجنسي. فلعلمه أن أسلوبه في الإغواء سيفشل، يقوم هو بإحباط العملية منذ البداية بتحقير الأنثى لإظهار أنه لا يهتم بها! وكذلك بالنسبة للأنثى، تزيد من نسبة نرجسيتها. فبدل أن تبدو مرفوضة باعتبار أن الأنثى كائن مقبول بامتياز أو يلزمه أن يكون كذلك، فهي تتعامل بغرور وبرود حتى تقلب الوضع الاجتماعي، لتظهر أنها هي من يتخذ موقف الرفض وليس الآخرون. وهذه ألاعيب ذهنية وحيل دفاعية لحماية الأنا يقوم بها كلا الجنسين. لكن ما إن يدغدغ أحدهم المشاعر أو فقط يتصرف نحوهم بلطف حتى يقعوا أو يقعن في غرامه، ويتشبثن به! هذا دون الحديث عن سرعة الغضب أو قلة المرونة في التعامل.

ومثل تلك الميكانيزمات (المذكورة) يعبّر بها الشخص عن رفضه للرفض، أي حيل لاواعية يتجنب بها الوقوع في الانسحاب أو الاكتئاب كما حصل للمسخ في رواية ماري الذي انسحب للعيش في الأدغال والتنقل بين الجبال ليستقر أخيرًا بالقطب الشمالي.

ومع استمرار تضخم الرفض كعقدة وتأثيرها على التفكير قد يلجأ الشخص للتشدد في الدين كمحاولة (أو حيلة) يهدف منها التماهي مع شخصية القائد الديني أو الشخصيات الدينية المعروفة، باعتبار أنها مقبولة لدى الأغلبية بالمجتمع. فيشبّهون هنا مقلدي مشاهير الفن والرياضة، فعملية التماهي تخدم

نفس الغرض في كلتا الحالتين. دون أن نغفل عن عملية الانتقام في التبشير أو الترهيب وكل ما يهدف للتسلط على الآخرين. ومن وجهة نظر «شخصية»، فقد ربطتني علاقة قرب بالكثير من المتشددين الدينيين منهم من يقدم الآن دروسًا دينية أو إمام لمسجد (منهم من تراجع): سبب توجههم للدين والتشدد فيه كانت أزمة عاطفية، وهذه الأخيرة تخفي إحساسًا كامنًا بالرفض. دون أن نعمم هذا الأمر على الجميع، غير أنه من خلال معاينتي لبعضهم بت متأكدًا من أن عملية الرفض تلعب دورًا: كبيرًا كان أو صغيرًا.

ونفس الأمر بالنسبة للإناث المتشددات، الفرق الوحيد هو أنه بالنسبة لهذه المجموعة قد نجد تدخل المستقطب كالأخت الكبرى، الصديقة أو العمة والخالة، والتي تسهم بدخول المعنية لهذا المعترك (ولا يشمل التعبير مَن يتربون منذ صغرهم على التشدد).

حتى بالنسبة للبغاء، نجد كُلاً من العاهرة وزبونها، عبارة عن شخصيات تحاول أن تحقق رغبة لاواعية في استمالة الآخرين وكسب ودهم، غير أن الأمر على مستوى الوعي يكون صادمًا لكليهما!

عند تقديم منتوج لشخص فيرفضه، فإن هذا لا يعني أن المنتوج سيئ بقدر ما يعني أن الزبون يمارس «اختيار». فالرفض لا يعني أن العرض سيئ أو جيد بل يعبّر عن عدم الرغبة، قد يجد المنتوج غير نافع له ولا يفيده في شيء.

نفس الأمر يتعلق بالعلاقات الاجتماعية: حتى وإن تم رفضك من قبل شخص أو بعض أشخاص، فهذا لا يعني أنك مخلوق غريب أطوار أو مسخ، بل يعني أن الرافض لا يرى معك أي عملية تشارك أو لا يجد فيك أي اهتمام سيجمعكما - زيادة على أن الرفض حق من حقوقه، فاحترام اختياره، احترام له، واحترام للإنسان، واحترام لذاتك في آن معًا. لا أن تلزم الجميع بأن يحبوك ويهتموا بك كطفل صغير! فلا شخص ملزم بأن يقبلك أو يحبك، بل «يختار» ذلك، فكما أنك تحترم من يقبلك، فيلزمك أن تحترم كذلك من يرفضك (أو ليذهب للجحيم

إن كنت لا تهتم!). المشكلة هي أن البعض يربط سعادته بالآخر، فما أن يرفضه حتى يحس بأن سعادته ستضيع، لهذا يقتني البعض كلبًا أو قطًا لأنها كائنات لا ترفض ولا تتنكر، كما يذهب ديدرو لحد القول أن الشخص هنا يجد أن مشاعره لا يستحقها إلا هذا الحيوان!

نود إضافة نقطة مهمة تتعلق بتلك الكتب التي تتضمن طرق لكيفية سحر الناس أو كيفية إيقاع الجنس الآخر بأكمله في شباكك!! وما شابه ذلك من الكتب التي يكتبها دونخوانيون مزيفون أغلبهم يعاني من مشكلات اجتماعية (أو من هذه النقطة بالذات!). فلا الكاتب ولا القارئ (المثيرين للشفقة فعلًا) يدرك أن دون خوان شخصية فولكلورية خيالية، بل حتى كازانوفا ما زال النقاد يختلفون حول مذكراته: أهي من تأليفه أو من تأليف ستاندال أو قام بكتابتها شخص مجهول أو أشخاص متعاونون! أما بالنسبة لمن كان مهتمًا بإلحاح للإطاحة بالجنس الآخر بأكمله وإغوائه، فالأفضل له، لربح الوقت والمال ولتجاوز تعب المطالعة والبحث أن يقوم بتقديم طلب للاشتغال بإحدى الشركات المنتجة للأفلام البورنوغرافية.

رغم ذلك يظل الكائن البشري ينتظر ذلك الشخص الذي سيفهمه ويقدره ويحبه لشخصه ويكسبه احترامًا حتى لو لم يكن يستحق! بل هناك من يود أن يحقق أحلامه زيادة على ذلك!

***

الإنسان ليس حرًا ما لم يتحرر من الآخر

قد اكتشفت أنني كلما رميت بوثن عن صدري ازداد إبحاري حرية وطلاقة..

غادة السمان

قد نتفق على أن مفهوم الحرية هو فعل الإنسان لما يريد وقتما يريد وكيفما يريد، لكن بحكم أن الإنسان يعيش في مجتمع وبين أفراد آخرين فإن تصرفه الحر قد يحد من تصرفات الآخر فيتصادم معه أو يؤذيه. كما بتعبير مونتيسكيو «تنتهي حريتك حيث تبدأ حرية الآخرين»، ممكن! لكن هذا إن كنت تتمتع بالحرية التي قد تجعلك تحد من حرية الآخر! وهذا إن كان ذلك الآخر يتمتع أيضًا بالحرية (الخاصة به) التي قد تتضرر! فهل حقًا يتمتع الإنسان بحرية فعل ما يريد وقتما يريد وكيفما يريد؟ وهل فعلًا يتمتع الآخر بحرية بالقدر الذي قد تتضرر إذا حدث واصطدمت بتصرفات (أو حرية) الآخرين؟ أو إن الإنسان بحسب المثل الأمريكي «حتى لو مد يده ليلمس أنف الآخر فإن يده لا تصل»! لأن يده مقيدة دون أن يدري، أو لأنها ليست طويلة كفاية للمس أنف الآخر؟!

أغلب الكتابات التي تناولت مفهوم الحرية خلطت بينه وبين التعاون الاجتماعي.. كيف؟!

الحرية لا تتعلق إلا بالفرد، أي الأمور التي يقوم بها الشخص بمفرده، مثلاً: «يمكن أن أستيقظ في الصباح وأقرر أن أظل مستلقيًا أي لا أنهض. يمكنني أيضًا أن آكل لدقيقة ثم أذهب وأعود بعد دقيقتين وأكمل الأكل، وأعيد هذا الأمر لثلاث مرات متتالية. ويمكن أن أصب لي كأس شاي، ولا أشربه بل أقوم بسكبه على شَعري، أو أشاهد التلفاز وأنا أقف على رأسي، وغير ذلك من الأمثلة التي تعبّر عن تصرفات شخصية، أي أقوم بها بمفردي ولغرض خاص بي وحدي». لكن حينما ندرج الآخر فإن الحرية تختفي؛ لأن ما سيظهر هنا هو التعاون. فكما قلنا فإن الحرية متعلقة فقط بالفرد، أما التشارك مع الآخر في الممارسة الحياتية،

سواء على مستوى مؤقت أو دائم فإن الشخص يلزمه تنازل عن حريته (الفردية) لضمان أو تحقيق تناغم مع هذا الآخر، فالحرية تنمحي مع ظهور الآخر ليبرز التعاون. نوضح بمثال بسيط: «قد أقرر اليوم أنني سأخرج في نزهة عند الرابعة بعد الزوال، لكنني قد أخرج قبل الموعد بساعة، أو بعده بساعة أو ساعتين أو لا أذهب، أو أخرج للنزهة حالًا! فهذه حرية، أي تصرف يتعلق بي وحدي وأنا من يقرر. لكن إذا اتفقت أنا وشخص على الخروج للنزهة في الرابعة، فإن ذهبت في الموعد المحدد فأنا متعاون وإياه لتحقيق هدف، لكن إن لم أذهب في الموعد المحدد فهذا يعني أنني غير متعاون!». فنرى هنا أن الأمر لا يتعلق بالحرية فأنا لست حرًا، بل بالتعاون أي تقديم تنازلات عن حريتي. فالفرد الذي يؤذي الآخرين بتصرفاته، فهذه ليست ممارسة زائدة للحرية! بل يعني أنه شخص غير متعاون، بتعبير أوضح أنه انخرط في المجتمع دون تنازل عن حريته، وبالتالي يرفض التعاون. ربما لا يزال الأمر يبدو غامضًا!!

لنفترض أن شخصًا أراد الانخراط في لعبة معينة (مع جماعة طبعًا)، فاللعبة تحتم شروطًا وقوانين في أثناء مزاولتها، ولنتخيل هذا الشخص قام بفعل ما يريده داخل اللعبة، فهو هنا لا يمارس حرية بقدر ما يخرق القوانين المتفق عليها في اللعبة، ما يعني أنه غير متعاون لإتمامها، فإما أن يتخلى عن حريته وينضم للتعاون بشروط اللعبة أو سيتم طرده. نفس الأمر يحدث في المجتمع، فالفرد لا يمكن أن يمارس حرية، لماذا؟ لأن المجتمع كاللعبة تضم قوانين وشروطًا حتى يتحقق التناغم وتستمر عمليات الممارسة في جو منظم، لذا فحينما يحاول الشخص ممارسة حريته (الفردية) يخرق بند التعاون الذي يحتم التنازل عن تلك الحرية والانصياع أو بتعبير أصح قبول شروط اللعبة. بذلك فإن غير المتعاونين في المجتمع لهم اختيار قبول الشروط والعودة للعبة أو يتم طردهم بزجهم في السجون أو المصحات العقلية، أو حتى المقبرة (كحالات الإعدام مثلًا).

وكذلك نفس الأمر في أي عملية انخراط اجتماعية، فلكي تنضمّ لدين أو

لجماعة ما، يلزمك بداية أن تتخلى عن حريتك حتى تتمكن من الانضمام والموافقة على الشروط. بل حتى في علاقات الصداقة والعاطفة والزواج، فإنها تحتم كذلك تنازلًا عن حريتك والقبول بشروط التعاون لممارسة العلاقة مع الطرف الآخر. لهذا نستطيع أن نقول إنه لا حرية بتواجد الآخر؛ لأنه بتواجده توضع حدود وتتحدد مساحة الممارسة بحقل مسيّج، فلممارسة الحرية يجب الانتقال لخارج الحقل لأن الآخر يحد حريتك كشرط لنشدان المصلحة المشتركة، والتعاون لضمان عدم حدوث اصطدام، ولهذا توضع شروط يلزم قبولها لاستمرار نجاح العملية. فالحرية كمفهوم لا يُحد، وكل عملية حد لشكل من أشكالها تلغيها، لينتقل بذلك الحديث عن مفهوم آخر وليس عن الحرية لأنها لم تعد كذلك!

بهذا وبالعودة للمثال، فإن التصرفات المذكورة فيه تعتبر عادية ومن حق الشخص، بل قد نقول إن أي تصرف يحق للشخص فعله، لكن ما إن يظهر الآخر حتى يُبنى السياج ويتم تحديد تصرفات معينة هي فقط المسموح بها، والباقي هو ما يمكن أن نعتبره بحسب المفاهيم الاجتماعية ما يُدرج ضمن الغير مقبول اجتماعيًا، الجنون وكذلك الانحراف والجنوح. طالما أنه ضد شروط اللعبة المتفق عليها، فيتم إلغاؤه.

الإشكال الذي نود الحديث عنه هنا، هو أن الإنسان بحكم أنه يولد ضمن نظام اجتماعي محدد، فإنه يولد ككائن غير حر!! لأنه تلقائيًا سيبدأ في الانخراط في اللعبة الاجتماعية ويتلقن مبادئها وشروطها، لينمو كلاعب يتحدد دوره فيما بعد بحسب خبرته ومعارفه. لذا فالفخ الذي وقع فيه كثير من المفكرين والفلاسفة هو ضمان حرية للإنسان داخل اللعبة، ما يعني أن كل ما يقومون به هو فقط تعديل لبعض قوانين اللعبة، وبالتالي فهم لا يضمنون حرية للإنسان بل فقط يقومون بتغيير شروط اللعبة، ليدخل الجنس البشري في حلقة من التغيير وإعادة الشروط وهو ما يُعرف بالثورات على مدار التاريخ. والحرية توجد خارج اللعبة!!

ولا نود أن نشير هنا إلى تفكك المجتمع حتى يتحرر الإنسان، بل إلى علاقة

الأنا والآخر وارتباط النظم الاجتماعية بهما، فهذه الأخيرة هي ما يرسم ويحدد التعامل والتصرفات الموجهة والمتبادلة بين الطرفين أو الأطراف. فالإنسان لا يتحرر طالما أنه يمارس أنشطة اجتماعية داخل النظام، بل يلعب أدوارًا، فالأدوار الاجتماعية هي ما يوجِد اختلاف الممارسات بين الأفراد، وهي ما يبدو على أنه اختلاف في نسب الحرية الممنوحة بين الأفراد أو حتى بين المجتمعات.

وللتوضيح يمكن أن نبين هذا الاختلاف في نسبة الحرية والذي يعود في الأصل لاختلاف الدور الاجتماعي. فقد نجد رئيس العمل مثلاً يقرر ألا يذهب للعمل هذا الصباح، لكن العامل البسيط لا يستطيع حتى لو أراد: فيصبح مثله مثل النحلة التي لا تستطيع أن تتوقف عن إنتاج العسل! وكلاهما (الرئيس والعامل) ليس حرًا (حتى يقوم بما يريد وقتما يريد..)، بل فقط الدور الاجتماعي هو الذي يمنح بعض الامتيازات لبعضهم، وهذا طبعًا يعود للمعرفة التي يمتلكها كل منهما. فاختلاف المهندس المعماري عن الصباغ هو في اختلاف المعرفة التي يمتلكها كل منهما، فلو قمنا بتبديل عقليهما لتغير دورهما الاجتماعي وقيمة الدخل الاقتصادي، لتتغير الممارسات الحياتية كذلك، فالوقت الذي يقضيه المصمم في العمل ليس هو الوقت الذي يقضيه الصباغ! وما يقتنيه ذاك (مواد استهلاكية أو ترفيه) لا يقدر على اقتنائه هذا.

لذا فضمن النظام الاجتماعي، كلما زادت معرفتك (في الأمور الضرورية والمهمة بالنسبة للمجتمع) تحسن دورك داخله (امتيازات على مستوى الممارسة الحياتية). رغم ذلك يظل مثل هؤلاء الأفراد متعاونين وغير أحرار، فالأغلبية محكومة بممارسات اجتماعية كأوقات تناول الوجبات، أوقات النوم والاستيقاظ، الاعتبارات الاخلاقية (ما يجوز وما لا يجوز)، فالإنسان محكوم بهذه الأمور طالما أن تفكيره ما زال ضمن السياج.

نصل الآن للنقطة المهمة، وهي بحكم أن الطفل ينمو داخل السياج، فحينما يكبر ويسعى للحرية يجد هذه الأخيرة تصطدم بالنظام الاجتماعي، فكأنه يحاول

أن يمارس اللعبة بشروطه الخاصة والغير متقبّلة. وهذا ما يخلِق صراعًا مستمرًا بين الشخص والعالم: لأن الحرية والنظام المجتمعي لا يجتمعان في وسط واحد. فيرى أن العالم تافه وليس له أي معنى مثلما ذهب في ذلك بعض المفكرين، واعتبروا أن الحياة شيء تافه، لكن التافه هنا هو وعيهم المُسيَّج. فالعالم مكان «محايد»، تحزن تراه سيئًا، تفرح تراه رائعًا، تغضب تجده ضِدّك، مُحبَط تراه غير عادل، مخيفًا عندما تخاف، كما يشير إلى ذلك ديفيد فيسكوت بتعبير مغاير.

فالإسقاطات النفسية هي ما يرسم صورة للعالم من منظور إنساني، فالتفكير التافه سيبدي لك العالم بشكل تافه!

تَحَرُّرَ الإنسان من سيطرة الغابة لدى معرفته (اكتشافه) لنظام الزراعة، وتحرر (نسبيًا) من الجاذبية بمعرفة (دراسة) قوانينها، فالإنسان في تحرر مستمر باستمرار زيادة معرفته. لذا فإن الطفل يولد قابلًا للتعاون وليس حرًا، لكنه يتحرر من مؤسسات المجتمع بزيادة معارفه، كما يتحرر السجين من مؤسسة السجن إن توصل لمعرفة بنظام السجن وكيفية إدارة النظام للجهاز الأمني (ونعني بهذا الهروب)، وهذا أمر واقعي. فالمعرفة كما أنها تُحسّن دور الإنسان في المجتمع فهي تحرره كذلك من أوهامه ومخاوفه، لكن حتى يتحرر من المجتمع يلزمه معرفة كافية وقدرة كذلك لتحقيق مصالحه دون حاجة للتعاون أو التشارك. وهذا يصعب بحكم ارتباط الأنا بالآخر، بل إن الآخر هو ما يحدد الأنا كأنا. ودور المعرفة هنا أنها تساعد على تحسين جودة هذا الارتباط، كممارسة حياتية بمستوى أفضل داخل المنظومة الاجتماعية، أي ممارسة اللعبة في جو احترافي بتعبير آخر.

بحسب القالب الفكري الذي تشكله الثقافة الاجتماعية وعوامل التربية والدين في عقل الإنسان، فإن الأخير لا يستطيع الخروج من اللعبة إلا بتوسيع معارفه لينكسر القالب المشكّل مسبقًا، فالعقل يحتله الأسبق إليه بتعبير إبراهيم البليهي أي تحتله الأمور الأولى التي يتلقنها، وهي القالب هنا. فالمعرفة تكسر هذا القالب

لتعمل على توسيع مداركه، فعندما يتمدد العقل لاستيعاب فكرة جديدة لا يعود أبدًا إلى حجمه الطبيعي كما يقول أوليفر هولمز.

لكن بحكم (ضرورة) تواجد الآخر وباعتبار جدلية الحرية والمجتمع، فإننا نقول إن الإنسان يكون حرًا عندما يكون لوحده لكنه يصبح متعاونًا مع الآخر، فالحرية مرتبطة بالفردية، أما بظهور الآخر فهنا نتكلم عن تعاون أو عن عدم تعاون.

نرى في اقتباس لشوبنهاور أنه «يمكن للإنسان أن يكون على طبيعته فقط عندما يكون لوحده»، لكن الأصح من جهتنا هو أنه «يمكن للإنسان أن يكون على حريته فقط عندما يكون لوحده»، فعَين الآخر تحد من تصرفك وبالأخص لو كنت تنشد قبولًا لدى هذا الآخر، لتنصاع للشروط الذي يضعها لقبولك. وهو ما نقوم به في لباسنا وطريقة تصرفنا وعاداتنا الاجتماعية، ليتم قبولنا كفرد أو كأفراد. لذلك لا نستطيع فعل ما نريد وقتما نريد كيفما نريد! لأن الوصول لتحقيق هذا الأمر يلزمه غياب الآخر الذي «يحدُّ»، وكذلك معرفة كافية تمكننا من القيام بذلك بأنفسنا. وقد عبّر عن هذه النقطة أرسطو لدى قوله بأن من لا يستطيع الحياة في مجتمع أو لا يحتاج إلى ذلك فهو إما حيوان أو إله!

حقًا إن حريتك في العالم تزيد بزيادة معرفتك، لكن ومهما توسعت هذه الحرية فإن الآخر يلغيها. هذا ما سبب تخبُّطا لأغلب المفكرين والكُتاب والشعراء، وهو عدم فهم أن الحرية والآخر لا يلتقيان، وهم حاولوا أن يدمجوا ما لا يندمج! فالقول أن الحرية تحتاج لمسؤولية، أو أن الإنسان كائن حر، فمثل هذه التعابير السخيفة تُقزِّم الحرية لتجعلها مفهومًا يتمحور حول توسيع تصرفات الشخص في المجتمع فقط، أي دوره كما بيّنا. وهذا قد كشفه أفلاطون بقوله: الثمن الذي يدفعه الطيبون لقاء لا مبالاتهم بالشؤون العامة هو أن يحكمهم الأشرار، فمعرفة البعض الزائدة عن البعض هي ما تمكنهم من السيطرة. فالمعرفة هي التي مكنت الإنسان من السيطرة على العالم الطبيعي والحيواني والواقع، وسيطرة الجنس البشري على بعضهم البعض كذلك. وهي من يخلصك من حكم الأشرار بتعبير

أفلاطون (المعرفة الواقعية وليس دراسة العفاريت!!).

الحرية غير مهمة، ما يهم هو أن تَعرِف لتُحسّن حياتك. ارفع يدك واخفضها أنت حرا! فالحرية تبدأ من إغماض عينك وفتحها ولا تنتهي حتى لو استطعت السفر عبر الزمن؛ لأن حريتك تزيد دائمًا بزيادة معرفتك، وكلما عرفت تحررت. أما عن المطالبين بالحرية (حسب مفهومهم عنها) فهم فقط يطالبون بمنحهم امتيازات اجتماعية أو سياسية! لا أن يكونوا أحرارًا؛ لأن الحرية تتطلب تحررًا من الآخر، كما تغني أم كلثوم «أعطني حريتي أطلق يدي..»، لكن الحرية لا تُمنح بل تمارس كرحلة استكشافية! رحلة بمفردك.

***

الغريزة الزاحفة

إن الذي يعنيه الناس من الصراع في سبيل الحياة إنما في الواقع الصراع في سبيل النجاح. والذي يخشاه الناس عندما يخوضون في صراع، ليس أنهم سيفشلون في الحصول على إفطارهم في الصباح التالي. بل عدم تمكنهم من التفوق على جيرانهم

برتراند راسل

رغم قدرة الإنسان على كبت غريزته (نسبيًا) بإخفائها أو تأجيلها حتى يتمكن من إشباعها بطرق مقبولة (أخلاقيًا) وفي ظروف آمنة لا تهدد حياته! أو حتى سمعته. فإن هذه الغريزة لا تختفي أو تخمد كما يحسب الشخص، بل تظل «تزحف» باستمرار لوعيه بغرض الإشباع دون وعي صاحبها، وهنا لا نحدد الغريزة بالجوع أو الجنس أو التفوق أو العدوان إلخ من الغرائز المشار إليها في علم النفس، بل بغريزة البقاء بتعبير إجمالي وما تشكله هذه الغريزة كدافع في الصراع من أجل البقاء!

حسب بول ماك لين فإن العقل البشري ينقسم لثلاثة مركبات (الدماغ الثلاثي): اللحاء (قشرة الدماغ) وهو الوعي الذي يختص به الإنسان عن باقي الثدييات، الباليوماميليان وهو الذاكرة والانفعالات والقدرة على المحاكاة والتّعلم، وتختص به الثدييات الرئيسية أي مَن تلد وترضع. ثم العقل الزاحف أو دماغ الزواحف باعتبارها الكائنات الأقدم على سطح الأرض، والتي تطورت من الأسماك التي صعدت للبر منذ أكثر من 400 مليون سنة نتيجة عوامل التكيف والارتقاء. هذا المركب الأخير يختص بتنظيم العملية (اللاشعورية) الفيزيولوجية وردود أفعال الكائن الحي كالهروب والخوف، وهو ما يمكن أن نشير إليه بغريزة البقاء (حتى التناسل يشير للبقاء بالنسبة لدافع الجنس عند الحيوان).

بهذا، فالمركبات الثلاثة المقسمة بحسب ماك لين، لا يمكن أن نعتبرها ثلاث

أدمغة أو عقول توجد بداخل دماغ الإنسان، فالعقل خلال رحلة تطوره كان يسعى للارتقاء والتكامل. ما يعني أن العقل واحد ولا ينقسم، فعقل الإنسان عقل واحد مُرتقٍ عن عقل القرد وعقل السلحفاة، لا يحتوي على كليهما إنما يختلف عنهما بمرحلة متقدمة. فالتقسيم يعني الفصل، فمهما كان نوع الكائن الحيواني فإن دماغه يعمل بتكامل كوِحدة، أكان هذا دماغ سحلية أو دماغ طفل.

زيادة على أن تعبير العقل إشارة للوعي والقدرة على التحكم في العملية الإدراكية، كإدراك الزمان والمكان، والتحكم في السلوك كاستجابة للمحيط، وهذا ما يدفع المجتمع لاعتبار كل من لا يمتلك لخصائص الوعي (عملية الإدراك) فاقدًا للعقل! هذا الوعي بقدرته على تسيير الغريزة وتوجيهها يكشف لنا على أن العقل البشري المُدرك للغريزة، عبارة عن إدراك وغريزة.

فالعقل الزاحف هنا هو الغريزة، ليتجلى لنا أن الثدييات هي المسافة الفاصلة بين هذه الغريزة (الزواحف) ومحاولة إدركها والسيطرة عليها بالوعي (الإنسان). لذا فما أن تطغى الغريزة على الوعي حتى يَتحَيوَن الإنسان؛ لأن غريزته الزاحفة (العقل البدائي الغريزي) تزحف لاجتياح الوعي الخانق.

ولزيادة التوضيح، نجد تمظهر هذا العقل الزاحف في الإنسان حسب التعريف التالي: «هذا العقل هو المسؤول الأساسي عن بعض السلوكيات الرئيسية، مثل الكراهية والخوف، إظهار العداء لكل من لا ينتسب للمجموعة، غريزة البقاء، الإقليمية، احترام التراتبية الاجتماعية، الحاجة للعيش ضمن الجماعة، الثقة في الزعيم، إلخ»(35)، فنرى أن الكثير من تمظهرات هذا العقل الزاحف ما زالت تتواجد بالمجتمع الحديث، ما يفيد أن الغريزة تزحف باستمرار حتى تعيد الإنسان لعالم الأمس، للغابة، ولأنداد الأمس.

العالم الذي انفصل عنه بصعوبة ما زال يطارده!

لذا، فالصراع الحيواني لأجل البقاء في الغابة، نقله الإنسان للعالم الاجتماعي

(الحضاري) كصراع تنافسي من أجل التفوق. وهنا نرى تمظهر الغريزة الزاحفة كمحاولة منها لاجتياح الوعي، تقوم بوظيفتها في الحفاظ على تواجد الكائن الحي، ليس بحثه على ضمان الغذاء (فهذا صار متوفرًا)، بل بضمان نجاحه وتفوقه على الأقران! كما يشير اقتباس راسل أعلاه إلى أن الإنسان لم يعد صراعه من أجل البقاء يتعلق بالتغذية، بل بالتفوق على الجيران (الأقران)! وهذه هي وسيلة الغريزة المتروكة في الغابة والمدفونة في قاع العقل، للعودة والزحف على الوعي القامع لها، والمانع لها من بلوغ أهدافها بطريقتها.

وقد نرى انقضاضها على الوعي في لحظات ضعف هذا الأخير، كلحظة الغضب أو الخوف أو الإثارة الجنسية الشديدة. لكن ما دام الوعي قويًا وقامعًا، فإنها تكتفي بالزحف، بتعبير إيضاحي لهيلين كيلر: مَن يشعر برغبة لا تقاوم في الانطلاق لا يمكنه أبدًا أن يرضى بالزحف.

هذه الطريقة (الزحف) للتسلل إلى الوعي هي ما تُمكّنها من التعبير عن الوجود الحيواني الباحث عن الاكتفاء والإشباع. دون أن يدركها الوعي: الذي لقنته عوامل خارجية أن التعبير الحيواني مرفوض، وأن الإشباع دون تنظيم (يتدخل فيه الآخر أو السلطة) لا يجوز. فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يرفض أن يرضى بالغرائز الحيوانية، كما يقول ألكسندر غراهام بل.

من أمثلة تمظهر الغريزة الزاحفة نجد مثالاً لدى راسل سنوضح من خلاله الكثير، ويقول فيه: «الشحاذون لا يحسدون أصحاب الملايين مع أنهم بالطبع يحسدون الشحاذين الآخرين الأكثر منهم في التسول»(36). وما يشير إليه راسل هنا بالحسد، هو الصراع التنافسي وما يخفيه من حروب وعداوة، والأمر شبيه كذلك لما يحدث بين العمال والمستخدمين في الشركات، المصانع، الأسواق التجارية، المحلات الكبرى، الفنادق إلخ.. من تآمر، حيل، سخرية، تجسس، نقل أخبار. وذلك للتّسبب في الطرد، كصراع للبقاء!!!

لكن الغريب أن لا أحد يهتم بالرئيس (نِسبةً إلى تلك المؤسسات)؟ رغم أنه

أغنى وأفضل حالاً! بل هو خارج عن دائرة الصراع (حتى يتم الالتفات إليه)! كأصحاب الملايين في مثال راسل. فما السبب؟

بِزحف الغريزة على الوعي، فإنها تدفع بهذا الوعي لخدمتها، فالوعي ليس مُسيّرًا بِقدر ما يتحايل على ذاته! فكما أن لكل شخص رغبات يُؤثر كتمانها عن الناس، فإن له رغبات كذلك لا يريد أن يصارح حتى نفسه بها كما يشير إلى ذلك فرويد. هنا يرسم الوعي للغريزة حلبة الصراع ويحدد لها زواياها، زيادة على منظور القطبية الذي يتلقنه الشخص لتفسير الواقع، وهو قطب الله وقطب الشيطان، المساعد والمدمر، طريق السعادة وطريق البؤس. من هنا يبحث الشخص عن المُساعد ويتجنب أو يُصارع المدمر (كمصدر تهديد). وبالعودة لما يهمنا هنا وهي علاقة الوعي بالغريزة والمنظور القطبي، فإن الشخص يحدد «المساعد» في النموذج المُتفوق الذي سيبني نفسه عليه وسيُحاكيه ليخط مسار السعي نحو السعادة حتى يتشّبه به (وهنا يتم تأليه النموذج)، ليخرج بذلك المدير (المساعد) من دائرة الصراع. دون أن ينسى المعني هنا، الالتفات للمهددين وهم الأقران والمشابهون في الوضع، الذين يسعون كذلك للتشبه بالصنم. ليبدأ الصراع حول توفير الإمكانيات، حسد كل من يظهر أنه يقترب من الهدف، الاضطرار للتخطيط للإيقاع عند الإحباط، وكل ما يشكل حربًا نفسية تحدد المتفوق من المحتقر داخل الحلبة. فيبدو الآخرون هنا هم الجحيم. لكن رغم نظرة سارتر الثاقبة، إلا أن الجحيم هو غباؤنا الذي نتشاركه مع الآخرين! الجحيم هو الأيديولوجيا!! الأيديولوجيا التي تدفع بالوعي للتحايل على نفسه! الأيديولوجيا التي تساعد في تشكيل العقد النفسية! الأيديولوجيا التي تُطوّق الإنسان في حلبة، والعالم عبارة عن مسارح وصالات أوبرا وسيركات يقدم فيها الجميع عروضه! فتبًا لدوغما!!

وحتى عندما يتفوق الفرد ويلتحق بالنماذج، لينظر له الأقران بإعجاب (وتقديس)، خاصة إن كان التفوق يتم في ظروف صعبة أو قاسية. فإنه يجد

نفسه في حلبة صراع أخرى تتنافس فيها النماذج، فحتى الآلهة تتصارع فيها بينها حسب بعض المعتقدات! بل حتى الإله الواحد نجده يدخل في صراع ضد الآلهة المزيفة! كصراع للبقاء.

وبالنسبة لجميع المجالات (الفنية، الرياضية، الفكرية إلخ) وحتى في الحياة الاجتماعية، نجد الأفراد يشكلون طبقات تنافسية من أحط طبقة إلى جماعة النخبة، كُلٌّ يتنافس داخل حدود المساحة المرسومة وعلى خُطى الطبقة المُلهمة، دون الالتفات لما هو خارج المساحة التنافسية. فيستمر الأمر على نفس المنوال إلى أن يظهر فرد ضمن المجموعة نسميه «العازف»؛ لأنه يعزف على الأوتار الحساسة للطبقة. فبذكائه سواءً المقصود أو الناتج عن جنون نفسي (دون وعي)، فإنه يوجّه المجموعة ضد المهدد الحقيقي المانع من التفوق والارتقاء و«هو» الطبقة المُلهمة ذاتها! فتلتحم الطبقة بأفرادها وتُحوّل صراعها ضد بعضها البعض، إلى جهة الصنم الذي سيتم تحطيمه. وهذا ما يمكن أن نراه في انبثاق الأديان الحديثة، التظاهرات الوطنية، الإضرابات العُمالية، النقابات وما سوى ذلك من الثورات الجماعية أو الفردية حتى.

فيتم رفع العازف (كزعيم للقطيع) لمكانة التقديس (الصنم)، ويعاد تشكيل طبقات أخرى جديدة (الانتماء للمجموعة). وتعاد الدورة مرة ثانية، بظهور عازف آخر يحطم هذا الصنم، فيُعاد تشكيل الطبقات.. طالما أن الغريزة لا تتوقف عن الزحف!

الغريزة لا تحتاج إلا للقليل لإشباعها، فلتكن حيوانًا جيدًا وَفِيًّا لغرائزك الحيوانية كما يقول ديفيد لورانس. بدل أن تتركها تزحف على الوعي وتبحث عن إشباع مُشوّه، كما تقوم مثلًا بعض النساء بتقبيل الصغار بطرق شهوانية مُدّعيات أنهن يعشقن الأطفال! «أيتها المكبوتات! هل ستعشقنه أكثر من أمه والتي لا تقبله بمثل تلك الطريقة؟!!». دون أن ننسى المكبوتين من الذكور من يحتكون بالنساء أو المراهقات في حافلة الباص أو السوق.. وتجده في الصف الأول بخطبة

الجمعة!!.. المهم هو ألاّ تزني (الإيلاج)، فالزنى من الكبائر!!!! عالم لا تعليق عليه!

بالنسبة للجنرال الفرنسي شارل ديغول: فليس من هيبة دون غموض، فالألفة تولد الازدراء. فالغموض الذي يحيط بالصنم هو ما يمنحه هيبة لا تسمح بالاقتراب، ودور العازف هو العمل على إزالة الغموض. لذا فبالنسبة لمن يجده نفسه في صراع لا يوده (كما في الأمثلة السابقة)، يلزمه أن يترفّع عن عالم الزواحف البشرية. كما بتعبير نفس الجنرال: لا تجدي السلطة دون هيبة، ولا الهيبة دون البُعد. ويضيف الحسن ابن الإمام علي: «أن المزاح يأكل الهيبة». المزاح مع عقول الزواحف بالأخص!

إن انشغال الشخص بالأمور المهمة والمفيدة بالنسبة له يبعده عن مثل تلك الأجواء. كإنسان يهتم بممارسة وجوده بطريقة طبيعية، مستخدمًا عقله وتفكيره بنفسه لتقوية الوعي، والإسهام في تطور العقل البشري (الذي ما زال مستمرًا في التطور). فالعقل الذي يفكر بنفسه، متطور على العقل الذي يترك «البابا» أو المفتي يفكر عنه!

***

الإنسان ليس حيوانًا، بل حيوانات!

إن الجنس البشري تطور من قبيلة من القردة القاتلة

ريموند دارت

رآها.. أعجبته.. أرادها.. طاردها.. أمسكها.. حصل عليها.. استمتع بها.. ملّها.. رفضها.. فتركها مجروحة.

أول ما يتبادر للذهن بعد قراءة التعبير هو أن الكلمات تصف أحداث حصلت لأنثى في علاقتها بشاب أو رجل. لكن ماذا لو قلنا إن التعبير يتعلق بقط وفأرة! فمن المعروف أن بعض القطط (المنزلية منها بالأخص) لا تأكل الفئران، بل تكتفي بمطاردتها والاستمتاع بتعذيبها حتى تقضي عليها مثلما تفعل بالصراصير أو الخنافس. لكن ألا يشبه سلوك القطط هنا تصرفات بعض الرجال (إن لم نقل أغلبهم من منظور الأنثى!) الذين يستمتعون بالتسلّي بالأنثى وبتعذيبها ظانين أن الأمر ممتع لها كما هو ممتع بالنسبة لهم؟! كظن القط أن الفأرة تلعب كذلك وتساير اللعبة بمحاولات هروبها والانفكاك من قبضته!

ونجد في وصف شعري تعبيرًا يصف الأمر بدقة، يقول الشاعر:

فلا العيشُ يهنا لي ولا الموت أقربُ

كَعُضفُورَةٍ فِي كَفِّ طِفْلٍ يَضُمُّهَا

تذوق سِياق الموتِ والطّفل يَلْعبُ

فَلاَ الطّفْلُ ذُو عَقْلٍ يَحِنُّ لِمَا بِهَا

وَلاَ الطّيرُ ذُو رِيشٍ يَطِيرُ فَيَذْهَبُ»(37)

ورغم أن الأدوار منقلبة في التعبير، فالرجل هو المعذب في لعبة الأنثى، إلا أن الموقف لا يختلف. واللعب لدى الحيوان يخدم جوانب مهمة من حياته، ففي

اللعب يتدرب على الصيد ويعمل على تطوير مهاراته القتالية للدفاع عن نفسه، وهو ما يمكن أن نراه في لعب صغار الثدييات وحتى الكبار منها أحيانًا. لكن ماذا سيخدم الإنسان غير التسلية؟!

نرى أن الحيوان والإنسان يشتركان في أن اللعبة هنا تحقق لهما متعة التسلط! فالقط والطفل (في التشبيه) والرجل (أو حتى الأنثى) يكتشفون في اللعبة حجم سلطتهم وقدرتهم على الإخضاع، وذلك لأنهم يتمكنون من التحكم في العملية بسيطرتهم على الطرف أو الهدف (الفريسة). ونجد في كل لعبة (رياضة)، من يتحكم أكثر في الموقف (اللعبة) هو من يجد (يحقق) متعة أكبر. ونظرًا لأن الحيوان يظل مُهددًا وخائفًا، فإن اللعبة تمكّنه من تحقيق سيطرة مؤقتة على الواقع، ما يحقق له (أيضًا) ارتياحًا مؤقتًا ويمنحه ثقة بالنفس. والبشر من مثل هاته النوعية تخفي داخلها حيوانات مهددة تبحث في مثل تلك السلوكيات عن بعض الأمان المفقود! فالإنسان لدى انفصاله عن الغابة (الطبيعة) احتجز الحيوان داخله، لكن هذا الأخير يصر على العودة لموطنه حتى تتسنى له حرية التصرف والتعبير عن نفسه، وكنا قد بيّنا هذا الأمر سابقًا في «الغريزة الزاحفة»، لكننا سنتناوله بتوضيح أكثر لاحقًا.

وبالالتفات للطرف الآخر، وهو الأنثى والفأرة (وحتى العصفورة في التعبير)، فنحن نعلم أن الحيوان المُعذَّب لا يجد قوة كافية حتى يتمكن من تخليص نفسه، فلو كانت الفأرة بحجم القط لانقلب الموقف وتلقّن درسًا! بل إن بعض الجرذان تطارد القطط أو تردعها بتخويفها إن حصل واقتربت هذه الأخيرة منها. وحتى في التعبير الشعري نجد الشاعر قد وضّح الأمر بقوله «وَلاَ الطّيْرُ ذُو رِيشٍ يَطِيرُ فَيَذْهَبُ»، أي لو أن العصفورة تقدر على الطيران لفلتت من قبضة الطفل. ومنه نرى أن سبب وقوع الطرف المُعذَّب تحت رحمة الطرف الآخر هو «الضعف»، فقوة هذا الطرف هي التي تحقق له سيطرة على العملية.

لكننا بالانتقال للأنثى باعتبارها أن موقفها مشابه لهم، فهل الأنثى ضعيفة

مقارنة بالرجل؟ أم أنها «تظن» أنها ضعيفة مقارنة بالرجل؟

الأنثى تربت على أنها كذلك (أضعف من الرجل)، ومنه فإنه «لا توجد امرأة ضعيفة، توجد امرأة لم تمتلك الفرصة بعد لاختبار مدى قوتها، أو بالتحديد لكي تكتشف كم هي قوية» بتعبير ليلى المطوع. وكما قال الكاتب الإيطالي ألبرتو مورافيا في حوار أجراه معه نبيل المهايني: «أنا لا أرى فروقًا بين الرجال والنساء على الصعيد الاجتماعي والمهني والعاطفي والجنسي. غير أن التاريخ لأسباب قد يطول شرحها هنا.. خلق فوارق مصطنعة، تسقط الآن الواحدة بعد الأخرى».

وبما أن الأنثى ترى نفسها ضعيفة لتتخذ بذلك موقف الخضوع والاستسلام، فإنها تجد الخلاص والتحرر في الألم وهي نقطة من النقط التي بَنَى عليها «باولو كويلو» موضوع روايته 11 دقيقة. ويمكن أن نعتبر الأمر لو نظرنا له من زواية بسيكانيليزية: كشفًا عن عقدة ذنب تكونت (نتيجة تداخل عوامل تربوية وتقافية دينية) لدى الأنثى، لتعمل بذلك هذه الأخيرة (دون وعي منها) على تسديد ما ترتب من نتائج عن خطيئتها الأولى (الأصلية)! وإغوائها «آدم» على أكل التفاحة!

فما الذي ننتظره من مجتمعات تُعلّق مصير البشرية على «تُفاحة»؟!!. «يا تفّاحة يا تفّاحة بدّي ياكي يا تفّاحة.. والله لقطف هالتفّاحة»(38). (المُغني لا يعني بالقطف أنه سيخلص البشرية من الذنب كما فشل في ذلك المسيح وبعده فرويد وجماعته، إنما مثله مثل إخوته يربط التّفاحة بالهلوسات الجنسية!!) ـ «هاتي بَوسى يا تفّاحة..»!. فِعلًا إن الجنس من أقوى الدوافع في العالم الحيواني.

وبهذا يألف الناس المازوخيون (والأنثى التي يخصها الحديث هنا) دور الاضطهاد وموقف المعاناة والتضحية، فيتأقلمن مع هذا الوضع (كأسلوب عيش). كما وضح ذلك الكاتب أسامة أنور عكاشة على لسان إحدى شخصياته وهي تقول لأخيها «ها أنا كما تراني، جراحي ما برحت تنزف وما زلتُ ألعقها حتى أدمنتها، فأنا أقتات بدمائي وآلامي».

فقتاتوا من آلامكم أيها المدمنون! فأنتم لا تحسون بقيمتكم إلا إذا تألمتم! لكن السؤال: هل هم مُعقّدون؟ أم حيوانات جريحة؟! مثلها مثل الكلاب والذئاب بعد انتهاء العراك: غير أن البشر يبحثون عن الموقف الذي يضمن لهم جُرحًا، فالإنسان حينما يمر بالألم فهذا يعني أن القادم سيكون أحلى!! لأن من يتألمون هم من يستحقون مباهج الحياة.. إليكم يا إخوتي أقول لكم: من يصدق مثل هذه التخريفات، ليسوا أبناء الرب ولن يدخلوا مزرعته السعيدة.

«قام أحد العلماء الطبيعيين بوضع جماعة كبيرة من القردة على جزيرة بعد أن تأكد من وجود طعام ومساحة كافيين للجميع. وبدلاً من أن يقيم القردة مجتمعًا فوضويًا، انقسموا إلى قبائل وجماعات وقسموا الجزيرة إلى مناطق وحدود وراحت كل قبيلة تعادي الأخرى»(39).

رغم أن القصة تبدو غريبة ويصعب تصديقها (كتجربة يعني)، إلا أن تصرفات القردة ليست بعيدة عن المثال المذكور، فمعروف بأن القردة تُكوّن عصابات وقد تتصارع فيما بينها إذا تطلب الأمر، بل حتى تقوم بتشكيل «عصابات شوارع» كما يحدث في الهند بين «قردة لصوص» (الذي بثته قناة ناشيونال جيوغرافي).

لكن الغريب في الأمر هو أن تصرفات القردة (في القصة) ليست فقط مشابة لتصرفات البشر بل مطابقة لها!

ويُعرف عن كبار الثدييات أنها تمازح بعضها بعضًا لكن مزاحها أحيانًا ينقلب لقتال حقيقي، وهو ما حصل بين حمارين وحشيان حتى تدخّل حمار ثالث وأوقف الصراع! حيث بدأ القتال بشكل لعب لكنه سرعان ما انقلب لجد، ولولا تدخل ذلك الحمار لاتخذ الأمر منحى آخر (المشهد من وثائقي عن الحيوانات). وهذا الأمر لا يشبه فقط تصرفات بعض البشر، بل نقول إن أغلب مشاجرات المراهقين وأبناء الأحياء الشعبية (بالأخص) مُطابقة لهذا اللعب الحيواني!

والأغرب من الحمار الوحشي هنا هو الأخطبوط، وهو من الحيوانات التي

تتغذى على بني جنسها، وليس هذا فقط، بل تحتجز بعضها بعضًا قبل أن يقضي طرف على الطرف الآخر (المنهزم). فقد يحدث أن يتعارك الزوجان، وإذا انتصرت الأنثى فإنها تقوم بخنق الذكر «وسجنه لمدة» قبل التهامه.

ودون حاجة لذكر أكل الإنسان لبني جنسه (في مراحل ما من التاريخ)، يكفي أن الأخطبوط شبيه بالحكام المستبدين وصراعاتهم من أجل الحكم (بسجن وقتل المعارضين)، وحتى ما ذكرناه عن أنثى الأخطبوط يطابق صراعات بعض الزوجات مع أزواجهن، التي إن لم تنتهي بجريمة! تنتهي بسجن الذكر والتهامه (ماديًا)!

دون الحديث عن بعض رجال الشرطة الأغبياء والذين لا يختلفون عن الكلاب أكانت للحراسة أم للمطاردة، فبعضهم يُشعِرك بأنه من نفس فصيلة كلاب «الجرمان شيفارد» (عقليًا). تجد تعاملهم كتعامل «البيتبول» وتصرفاتهم كتصرفات «الدوبرمان». أما عن وظائف الحمير والتي تعجز عن التفريق فيها بين هذا الأخير والإنسان فلا تعليق! «قيمةُ الإنسان، ما أحقَرَها زَعَموهُ غايةً.. وهوَ وسيلَة»(40).

كل التشبيهات التي أوردناها منذ بداية الموضوع تكشف لنا: إما أنّ الحيوان يقوم بتقليد الإنسان؟ وهذا مستبعد لأن أغلبها يعيش بعيدًا عنه في الأدغال أو الحقول أو أعماق البحار. وإما أن الإنسان (بطبيعته) يخفي مملكة حيوانية يحملها معه أينما ذهب، ليكشف كل حين عن حيوان معين حسب انفعالاته؟!

وسواء اعتبرنا الإنسان حيوانًا مفكرًا أو سياسيًا أو مبدعًا أو حتى الأشدّ عُنفًا بتعبير نيتشه، فإن هذا عيب! من العيب اعتباره كذلك أي مجرد حيوان.. لأنه غابة متنقلة بحيواناتها كاملة!! فقد يبدو كخروف ثم ينقلب لذئب.. يصبح وديعًا كحمامة لأجل مصلحته وهو ماكر كثعلب.. يبكي كالتمساح ويفترس كضبع إذا سنحت له الفرصة.. وهذه الأمور تجدها في شخص واحد!!!

لذا فحينما تتعامل مع الإنسان تذكّر أنك تتعامل مع حديقة حيوانات! وهذا ما حاول الأسد أن يبيّنه لابنه وهو يخبره:

«سأحكي لك قصة الماعزة والذئب حتى لا تأمن من يمكر..

(و) سأذهب بك للحرباء.. حتى تشاهد بنفسك حيلتها!

فهي تلون جلدها بلون المكان.. لتعلم أن مثلها نُسخ.. تتكرر!

وأن هناك منافقين.. وهناك أناسًا بكل لباس تتدثر!

وبدعوى الخير.. تتستر!»(41).

وهناك بشر بكل الحيوانات تتمظهر!!.

ونحن نكتب الموضوع نسمع أحيانًا بعض المارّين وهم يقلدون أصوات حيوانات (كأدوات نداء لبعضهم البعض ربما!)! حتى إن أحدهم صاح «واااااااع»!!.. ففي أي فصيلة يمكن أن ندرجه؟! ربما حيوان فضائي.

***

استعراض السادية

الهمجية صناعة إنسانية يتقنها البشر بأهوائهم ومطامعهم وجشعهم. والوحشية ليست حيوانية، وإنما هي أيضًا صفة إنسانية بامتياز، إذ الحيوان يقتل وفقًا لقانون الطبيعة، وأما الإنسان يقتل بحسب مقتضيات الثقافة.

علي حرب

كبداية نستشهد بقصة ذكرها غوسطاف لوبون في كتابه الشهير، فهي ستساعدنا على توضيح كثير من الأمور. وتبدأ القصة عندما يحكي الكاتب عن جماعة قامت بالاستيلاء على سجن الباستيل والإمساك بمديره دولوني، فبدأت تتشاور حول العقاب الممنوح أو المُستحق، وبينما هو «يتخبط بين أيديهم لبط (رفس) أحد الحضور عن غير قصد. وعندئذ اقترح أحدهم أن يقوم هذا الرجل الذي أصابته اللبطة بقطع رأس المدير بيده». فيترك الكاتب هنا الكلمة لـ«أحد الشهود راويًا القصة: وكان هذا الرجل طباخًا متجولًا ونصف متسكع. وقد ذهب إلى الباستيل لكي يرى ماذا يحصل هناك، ولما رأى أن الجميع متفقون على قيامه بهذه المهمة وأنه يؤدي عملًا وطنيًا إذ ينجزها فإنه وافق على الفور. بل واعتقد بأنه يستحق ميدالية تكريم عن طريق قتله لهذا الوحش. وقد أعاروه سيفًا فضرب عنقه. ولكن السيف لم يكن مشحوذًا جيدًا فلم يفلح في ضربته. وعندئذٍ أخرج من جيبه سكينًا صغيرة بمقبض أسود كان يستخدمها في قطع اللحم كطباخ وأكمل قطع رأسه بنجاح لحسن الحظ»(42).

الغريب في القصة أن الطباخ هنا شخص عادي ذهب للباستيل فقط لمشاهدة الحدث، إما ليجعل منه حكاية يرويها لأصدقائه أو لأحفاده (فيما بعد)، حسب وجهة نظر ديدرو فالناس تترفع عن وضاعتها أي تُحس بقيمة عند لفت انتباه الآخرين في الحديث؛ أو فقط لأن (الحدث) يجعل يومه يختلف ويكسر به روتينه الحياتي. وهذا ما يدفع أغلب الناس للتجمع والتفرج «فلا شيء في

الواقع يسترعي الاهتمام البشري أكثر من المأساة الإنسانية»(43)، أو كما يشير كويهلو إلى أنهم يتمتعون بإيجاد أنفسهم في وضع المُتفرّج أي الوضع الأفضل. لكن ما لم يتوقعه هذا الطباخ أنه صار نجم الحدث على غرار اختياره أن يكون الجلاد أو مُنفذ العقوبة، وهنا باعتبار أنه شخص «عادي» صار في برهة الشخصية الأكثر لفتًا للانتباه. فمن غير المعقول أن يُضيّع هذه الفرصة ويستغني عمّا يمثل سبب تركيز الأنظار عليه وهو «العقوبة»، فكلنا لدينا أمنية بأننا سنصبح مشاهير في يوم ما كما يقول بولانيك لكن مع الزمن ندرك أننا لسنا كذلك. لذلك نرى اجتهاده في استخراج سكينه وتحقيق المطلب الجماهيري: كما يحقق الفنان مطلب الجمهور بإنتاج أغنية معينة أو الأديب المعروف بكتابة رواية. فالتأثير الجماعي على الفرد قد يشل أي شجاعة في رفض الطلب، فكما يقول المثل «الكثرة تغلب الشجاعة» بالنسبة للقوة العضلية فإنها كذلك تغلب الشجاعة الفكرية واتخاذ القرار، لكنها لا تغلب العقل والذكاء. فلو طلب خمسون مليون شخص طلبًا أحمق فإنه يظل طلبًا أحمق، بتعبير مستعار من أناتول فرانس.

Telegram:@mbooks90

فوحشية الطباخ هنا مُصوّغة بالجمهور الذي يتحمل مسؤولية الفعل، إنما هو مجرد أداة لتنفيد الطلب. وهذه هي تسويغات طياري الحرب والقناصين وما إلى ذلك من القتلة المأمورين والذين يُحوّلون مسؤولية فعل القتل للآمر، أما هم ففقط ينفذون. لهذا قد لا يشعرون بأي ذنب عند القيام بأبشع الجرائم، وهذا له علاقة بالنفسيات القابلة للخضوع (تتداخل عوامل التربية والضعف النفسي هنا)، بل حتى لدى المجرم إن لم يُسقط مسؤولية جرائمه على أوامر زعيمه، فإنه يلقيها على المجتمع الظالم الذي دفعه للقيام بذلك كرد فعل حمايةً لنفسه. لكن إن تم التأكيد لهذه النوعية بأن مسؤولية أفعالها (أو نسبة كبيرة منها) تقع على عاتقها، فإنها قد تصاب بانهيار عصبي أو تُجن، فعقدة الذنب المُحوّلة هنا تعود لتنخر تفكير المعني. بل حتى لدى القتل الديني (باسم الدين) نرى مسؤولية السلوك تقع على الرب باعتباره الآمر لفعل ذلك، ويسري نفس الأمر أيضًا على العقوبات الدينية والحد.

رغم أن الجرائم الوحشية ليست أمرًا نادرًا، فالتاريخ مليء بها إن لم نقل إنها تحدث حاليًا في شوارع وأزقة بعض المدن، فالمجرم ليس شخصًا غريبًا إنما هو الإنسان إن توافرت له ظروف مواتية لإظهار غريزته العدوانية، فبتعبير يونغ كل شخص يحتوي مجرمًا وقديسًا كما يحتوي على أنوثة وذكورة. وما يهمنا هنا هو استعراض الوحشية: من صلب الزنادقة وحرق الساحرات إلى رجم الزناة وبث شرائط وصور الذبح والتقتيل، وسواء كانت هذه الأخيرة واقعية أو مُلفقة، فالأهم هو معرفة الدافع للقيام باستعراض العقاب. ما يأخدنا للحديث عن التهديد باعتباره لغة تخويف موجهة للكائن للحد من تصرفات معينة، وذلك بإخباره أو عرض العقوبة التي ستطاله. ولزيادة توضيح هذا الأمر، فلنسترجع قصص الملوك (سواء الواقعية أو الخرافية)، عندما يزعج أحد الرعايا الملك أو يغضبه فإنه يأمر فورًا بقتله دون تردد، لكنه يلتجئ للتهديد لدى دخوله في صراع مع ملك آخر بدل الأمر بالقتل فورًا. فما السبب؟ إنه العجز، فقتل الملك لن يتم بنفس السهولة، زيادة على أن البدء بفعل عدواني: إعلان عن حرب طرفين، وقد ينهزم الملك في الحرب (كاختبار) ويَظهر ضعفه حينذاك. لهذا يلتجئ الإنسان عند خوفه من المواجهة للتهديد كمحاولة لإخافة الخصم والسيطرة عليه، وبنفس الوقت إخفاء الخوف الداخلي. فالتهديد محاولة لكبح سلوك الآخر حتى لا يضعنا في موقف قد يكشف عن ضعفنا.

وبالعودة للاستعراض السادي الذي نتحدث عنه هنا، فإن الدافع يتضح سواء لدى السلطة كالصلب والحرق والحد أو لدى الجماعات بنشر التعذيب. فالأولى تهدف لكبح الجماهير عن الثورة وقلب الأنظمة على رؤوسها طالما أنها (السلطة) لا تمتلك طريقة فعّالة للسيطرة عليهم إن حدث ذلك، أما لدى الثانية فهي تهدف لتمرير رسالة بأن كل من سيحاول إيذاءها (أو إيذاء أحد أفرادها) فإنه سيتعرض لنفس المصير، فتحاول إبعاد الخطر عنها. فالتهديد (والسلوك العدواني بصفة عامة) تلجأ إليه الكائنات لدى الإحساس بالخطر، كما نرى لدى الحيوانات من

إبراز الأنياب أو الانتفاخ (كتقوّس ظهر القط) وفرش الأجنحة إلخ. أما بالنسبة للفرار فيتم اللجوء إليه في حالة إدراك أن الخطر أقوى من أن يتم صدّه. وهذا الأمر مشابه كذلك لعملية الانقلاب السادومازوخي وهي تحول السادي المُحدِث للألم إلى مازوخي مُتقبّل للألم لدى مواجهته لسادي أو سادية أقوى، وقد نجد نفس الشخص يتعامل مع أحد بسادية (كزوجته) ومع أحد آخر بمازوخية (رئيسه)، وهي من طُرق المضطربين نفسيًا للتكيف في المجتمع. وتصل لأغرب حالاتها لدى الجانح الذي يُرهب شارعًا (بأفراده) ويصاب بالشلل أمام شُرطي! بل تجد الشخص ينقلب في نفس اللحظة من الصراخ والشتم إلى تهدئة الوضع إذا أدرك أنه سيحشر نفسه في موقف صعب.

وقد نرى بعض المناهج التربوية سواء لدى الأهل أو المؤسسة التعليمية، التي تلجأ للعنف أو التهديد كطريقة للسيطرة على تصرفات الأطفال، هذا لأن العقل لديهم مُعطّل. إن لم نقل إنها وسيلة لتفريغ العقد النفسية والضغط المجتمعي والاقتصادي على الصغار الذين لا يقدرون على الرد.

وحتى لدى الفنون القتالية نجد استعراضها لتكسير وتحطيم الألواح تخدم نفس الغرض، باعتبار أن هذه الفنون نتجت بسبب الحروب، رغم أنها صارت حاليًا تعبيرًا جماليًا يكشف عن قوة الجسد البشري. وأيضًا لدى استعراض قاطع الطريق لسلاحه الأبيض لتخويف الضحية وسهولة سلبه لأغراض هذا الأخير. وغالبًا ما يتم تعزيز التخويف بزيادة العدد (عصابة) خوفًا من انقلاب اللعبة على القاطع إن حدث والتقى «ضحية» جريئة. والطريقة نفسها يستعملها الناس خلال مشاجراتهم اليومية بإخافة كل طرف للخصم بحمل سكين أو حجر وما شابه ذلك بغرض تخويفه؛ هذا لأن الخوف يتملكه هو ولن يتخلص منه إلا إذا رآه على وجه الآخر وعلى إثر ذلك قد يندفع لتدميره. يقول إريك هوفر: «أنت تستطيع أن تكتشف أكثر ما يُخيف عدوّك، من خلال مراقبة الوسائل التي يستخدمها لإخافتك».

فكلٌ يلقي بخوفه على الآخر عند تخويفه، طالما أنهم لا يشعرون بالأمان. والإنسان سواء شعر بالأمان أو بالخطر: كلما قلّ فهمه زادت بربريته.

لنيتشه قول في (كتاب) ما وراء الخير والشر قد يلخص لنا النقطة الأخيرة التي تحدثنا عنها وهو أن: «مَن ينازع وحوشًا يجب أنْ ينتبه جيدًا ألا يتحول إلى وحش، فحين تطيل النظر إلى الهاوية تنظر الهاوية أيضًا لك وتنفذ فيك».

وحقًا فغالبًا ما يرغب الشخص أن يتحول لوحش حتى يتوقف عن الخوف من الوحوش كما نجد في الأمثلة الشعبية (كن أسدًا.. ذئبًا حتى لا تأكلك..)، بدل أن يكون إنسانًا قادرًا على ترويض الوحوش وجعلها ترقص كما يفعل مُروضو السيرك: لدى التعامل مع الوحوش بالعقل وليس بالغريزة.

***

تشريح الكراهية

الأمة مجتمع يجمعه وهم عن أسلافه وكره مشترك لجيرانه.

وليم رالف إنغ

نستطيع أن نلاحظ تولد الكراهية لدى الطفل لأخيه أو لإخوته، بل حتى لأمه وأبيه وذلك خلال سنينه الأولى. فالصغير يكره كل مَن يحاول أن يخفض من قيمته، نراها في الأخ أو الإخوة الذين يتنافسون على اهتمام الأهل، وتصل لأوضح صورها عندما ينجح أحدهم في التفرد بهذا الاهتمام. نجد مثالاً لذلك في القصة الدينية ليوسف ابن يعقوب وإخوته الذين حاولوا التخلص منه. ونراها كذلك في الطفل الذي يكره أباه أو أمه عند رفضهما اقتناء شيء يراه عند أطفال آخرين، فيجد نفسه أنه أقل من الأطفال الآخرين ولا يمتلك ألعابًا كألعابهم تجعله سعيدًا ومستمتعًا مثلهم. فيكره أباه أو أمه (أو كليهما)؛ لأنهما جعلاه يحس بشعور نقص لدى مقارنته لنفسه بالأطفال الآخرين. ورغم أن هذه الكراهية تظل مؤقتة سرعان ما ينساها الطفل بتغير الظرف، إلا أنها قد تُثبت في طبعه إذا وجد نفسه يعامل بقسوة وحرمان لمدة طويلة، وهذا قد نجده سببًا عند كثير من الناس في كرههم لطفولتهم، هذه الطفولة التي عاشوها بإحساس مؤلم إثر تعرضهم الدائم للانتقاص وسوء المعاملة من الأهل. على عكس من يحبونها وهم من عوملوا فيها بحب وتقدير. ولا علاقة لهذا بالثراء أو الفقر، بل بتفاعل الأهل والأبناء ونوع الجو الانفعالي المتوفر، زيادة على نسبة وعي الأبوين ونضجهما في التعامل.

دون أن ننسى كذلك أن الطفل يُظهر كراهية نحو بعض الحيوانات والمأكولات والظلام إلخ: تذهب بعض الدراسات لتفسير هذا الأمر بتعلق الطفل بأمه واستغلال تلك الأمور في لفت انتباهها وجعلها تبدي عطفًا نحوه. لكنه كثيرًا ما يظل الكره رغم تحقيق هذه الغاية، كأن يلح الطفل على إشعال ضوء الغرفة رغم أن أمه تعانقه في الظلام، أو يرفض تواجد حيوان أليف في البيت حتى لو

كان هذا الأخير سلحفاة لا يُظهر أي أحد من الأهل عطفًا نحوها (حتى يغار)، أو دجاجة تعيش في حديقة المنزل أو في السطح.

ما يدفعنا لتفسير هذا الأمر أن الكراهية هنا متولدة بغرض إبعاد أشياء تخفض من قيمة المعني وتنتقص من أناه، فهو يرفض الظلام؛ لأنه يجد نفسه ضعيفًا ووحيدًا، ويمكن أن يكره حيوانًا أليفًا إن حدث وأخافه هذا الأخير بطريقة ما، بل حتى إننا قد نجد أنه يكره بعض المأكولات لأنها سببت له ألمًا فيزيولوجيًا في السابق. وكل هذه الأمور تجعل الطفل يرى نفسه أمامها ضعيفًا وخائفًا. لأننا يمكن أن نلاحظ رغبته في الظهور بشكل قوي والتصرف كالأبطال، لهذا نجد أغلب الأطفال مهووسين بأفلام ومسلسلات الرسوم المتحركة التي تتناول البطل الذي يهزم الأشرار ويتغلب على مخاوفه، فهُم يتماهون مع البطل ويتقمصون شخصيته لدى مشاهدته، ما يخلق لهم إحساسًا بالمتعة والفخر. وقد نجد أن هذا الأمر ينطبق على الأطفال الذكور أكثر من الإناث، إلا أنه بالنسبة لهذه الفئة الأخيرة فإنها تجد نفس الشيء في القصص التي تتناول الأميرات التي يتغلبن على الساحرة الشريرة ويمتلكن أصدقاء من حيوانات قد تخيف البنت في الواقع. ما يفيد التفوق وإظهار الشجاعة وعدم الخوف في كلتا الحالتين.

ومما سبق يمكن أن نفسر سبب كره الشخص لبعض الأماكن التي يجد نفسه فيها أقل شأنًا أو لا يعامل بالطريقة التي يود، مثلما يكره الطفل المدرسة عندما يجد نفسه يعامل بطريقة أقل من الطريقة التي يعامل بها في البيت ويرى أن الاهتمام غير متوفر كما يوفره الأهل في البيت. ومنه نرى بعض الناس يكرهون الأماكن الراقية التي تنتمي لطبقات ثرية، نظرًا لأنهم يجدون أنفسهم أقل من الآخرين. وعكس ذلك عند بعض من يكرهون الأماكن الشعبية التي يحسون بأن قيمتهم تنخفض إثر التواجد فيها. ونجد ذلك أيضًا في بعض المقاهي أو المطاعم التي يفر منها الزبائن مبررين ذلك بأنها لا تتوفر على الجودة اللازمة، والغريب أنهم يتهافتون على أخرى أسوأ منها. لكن السر هنا في التعامل الذي

يلقونه، فهم يلجؤون للأماكن التي يحسون فيها بقيمتهم بِغضّ النظر عن جودة منتوجاتها. وقد تنبّهت لهذا الأمر العديد من الفنادق التي تُشغّل شخصًا يختص بأمور الترحيب والاستقبال حتى يجعل الزبون يحس بأنه أهم شخص متواجد بالفندق، إنما هي حيلة لجذبه كل حين. فالعقل له قدرة مدهشة على بناء النماذج وتعميمها، فالخبرة الجميلة يسعى لإعادتها والخبرات السيئة يتجنبها، فيعتمد بذلك على الذاكرة في المواقف، فإن أحس بأن الموقف الحالي مشابه لموقف سابق تعرض فيه لألم نفسي/جسدي، سيترك هذا الموقف (بمكانه وأشخاصه). ويمكن أن نفسر بهذا ظاهرة الديجاڤو Déjà Vu وهي عندما يجد الإنسان نفسه في موقف كأنه عاشه من قبل، فيخلط الواقع بالحلم. إنما هي قدرة الدماغ على تكميل المشهد الحالي بمشهد سابق فتتداخل الذكريات، ويظن الإنسان أنه عاش نفس الموقف بتفاصيله من قبل. يمكن أن نوضح ذلك بوجه ذا ملامح غير واضحة يمكن أن يراه الإنسان كوجه لشخص يعرفه، فالدماغ يكمل النقص بذكريات مشابهة متوفرة لديه. فيجد الإنسان في الديجاڤو كأنه يكرر نفس الموقف.

إن الكره يُسبب شعورًا بالنفور وعدم الارتياح بالموقف (أو الشخص) الذي ينتقص من قيمة الإنسان، كالمواقف التي يجد نفسه فيها خائفًا أو مُحتَقرًا، فينسحب. ويظل الكره هنا على المستوى الفكري والانفعالي. لكن يمكن أن تتولد ردود أفعال عدوانية إن وجد الإنسان أن مسببات خفض القيمة تتواصل أو تستمر، يمكن أن نرى ذلك في الاشتباكات التي تقع بين زملاء العمل بحكم احتكاكهم اليومي، إن كان أحدهم يعمل على احتقار الآخر أو حتى توهّم أحدهم ذلك من الآخر! لكن لا يستطيع الإنسان أحيانًا أن يعبّر عن عدوانيته بحكم ضوابط المجتمع والسمعة. فيظل الكره باطنيًا وغير باد، مما يشكل إحساسًا بالألم وعدم الارتياح، ويعود سبب هذه الأعراض عندما يجد الإنسان نفسه في موقف مهدّد للأنا، وكرد فعل تقوم غدد موجودة في الدماغ بتركيب تفاعلات كيميائية بعد ترجمة الاستقبالات الحسية التي تفيد وجود موقف مهدّد، فتُحفّز

على إفراز هرمون النورأندرينالين الذي يتسبب في تغيرات فيزيولوجية في الجسم بغرض الانقضاض (العدوان) أو الفرار. لكن حينما يجد الشخص نفسه في موقف يصعب فيه التعبير عن الانفعال كما تفعل الحيوانات، فإنه يكبت ذلك بسبب الضوابط الاجتماعية، ما يجعل الطاقة المتولدة لا تتفرغ، ليرتفع ضغط الدم بسبب ضربات القلب المتسارعة ويُحدِث تغييرًا على مستوى العضلات والمعدة والأمعاء. فترتفع حرارة الإنسان ويحس بعدم انتظام داخلي وعدم ارتياح بل أحيانًا «شعورًا بالغثيان». وهذا ما يصفه البعض من يكرهون وظائفهم في المؤسسات البيروقراطية أو الشرطة وما شابه ذلك (أو حتى لدى زيارة لهذه الأماكن)، إثر تواجدهم في وظائف ينصاعون فيها لأوامر مِن مَن هو أعلى مرتبة، وتعرضهم المستمر للإهانة أو التعامل بدونية (يمكن أن يتكيف العقل هنا كطبع مازوخي). وقد توصّل فوكوياما لذلك بتعبير يفيد بأنه ليست الثروة هي ما يهم الناس بقدر ما يهمهم كسب الاحترام.

مما سبق فإننا نكشف سبب كراهية البشر لبعضهم البعض (الاحتقار العنصري أو الطبقي)، وكذلك الكراهية المتولدة بين الطوائف والمذاهب والأديان التي تسعى كل منها لإظهار أن الآخر هو الزائف (التنقيص منه). بل حتى في حالات الاكتئاب نجد المكتئب يكره العالم لإحساسه بأنه ليست له أي قيمة فيه، وتستمر اللائحة طويلة في الكره بين الأطياف الرياضية والمشاهير أو ما يتعلق بالأجواء التنافسية (المَرَضية)، وبين الجنسين كذلك والمتمثل في الكره المتولد بعد الخيانة أو عند التكبر وكل ما يُترجَم على أنه تنقيص من أنا الشّخص وجرح لنرجسيته. كذلك الكره الجماعي بين الدول (كما يشير لذلك اقتباس وليم ببداية الموضوع)، وحتى كره العرب للغرب.

نجد أن أغلب حالات الكره تنتج بسبب سوء الفهم، فالإنسان يكره منذ طفولته (كما بيّنا) كل ما يسبب له أو يحسسه بالدونية، ونعلم كذلك أن الإنسان بطبيعته يكره الغموض، لذلك قد يستعين على تفسير الأشياء حتى بالخرافات. فالمعرفة

الموضوعية والعقلانية هي التي مكنته من فهم الأشياء وكيفية التعامل معها بل وحتى السيطرة عليها. لذا فمن العيب أن يعتمد الإنسان على الأفكار المسبقة والثقافة الشفهية المتداولة بالألسن بين الناس بدل التحري في الموضوعات؛ لأنه بتعبير مُعدّل لمارك توين فإنه: من الحماقة أن تكره أحدًا «أو مجتمعًا أو حيوانًا أو أي شيء، فقط» لأنك سمعت شخصًا يتحدث عنه بالسوء.

الأهم مما سردناه حتى الآن هو توضيح أن الحب والمحبة ليست سوى تقدير واحترام، فيستحيل أن يحب الإنسان شخصًا يهينه ولا يُقدّره، إلا في حالة كان هذا الشخص مختلاً أو غريب أطوار. وقد نجد سبب تعلق الأشخاص وارتياحهم لبعضهم البعض هو الإحساس بالقيمة والشأن في صحبة بعضهم البعض، هذا عندما يظل الأمر في مستوى طبيعي عقلاني. بل إنه من المعروف أن المرأة تكره الرجل إن أحست أنه يراها فقط من منظور جنسي دون منحها أي قيمة إنسانية، والرجل كذلك يكرهها إن علم أن علاقته بها مبنية فقط على الاستغلال الاقتصادي. فالكره هنا متولد بسبب الإحساس أن الأنا (الشخصية) ليست مهمة بالنسبة للآخر أو لا يعيرها أي اهتمام.

في العلاقات الإنسانية نجد أن الكره أمر طبيعي باعتباره نتيجة أو رد فعل عن الانتقاص، كما نجد في قول منسوب للإمام علي أنه: «إذا رفعت أحدًا فوق قدره، فتوقع منه أن يضعك دون قدرك»، وعندها ستكرهه! لهذا أشرنا أن تظل العلاقات في مستوى طبيعي عقلاني.

***

الحسد اللاشعوري

كل مآسينا تقريبًا تنبع من صلاتنا بالآخرين.

آرثر شوبنهاور

بحكم أن الإنسان يكبر ضمن مجتمع، فإنه ينمو ويكبر ويعيش مع الآخر، هذا الآخر الذي يلعب دورًا كبيرًا في سلوكه وتصرفاته. بل قد نقول إن أكبر نسبة من السلوك سببها هذا الآخر: إما للفت انتباهه وإدهاشه أو لرفضه وإبعاده. فالآخر هو الجحيم عند سارتر، والآخر هو الجنة عند غابرييل مارسيل.

في المجتمع الصغير أي الأسرة، قد نرى في بعض الأحيان أن لدى الطفل أمنية في الحصول على أخ للعب والاستمتاع. لكن ما إن يأتي هذا الأخير حتى يلحظ الطفل أن اهتمام الوالدين انكبّ على هذا الزائر بحكم أنه ضعيف ويحتاج رعاية زائدة. فيجد الطفل نفسه في صراع مع هذ المنافس الذي سلب اهتمام الوالدين. ولطالما تناولت الدراسات النفسية والكتابات التحليلية هذا الأمر الذي يعرف بالحسد الأخوي أو عقدة قايين (قابيل): ما يشير للعدوانية الموجهة نحو المنافس.

وبالانتقال من المجتمع الصغير إلى المجتمع الكبير، فإن الأمر لا يختلف كثيرًا، فالتنافس الطفولي حول كسب اهتمام الأم والأب، يتحول لتنافس اقتصادي لكسب اهتمام الآخر وذلك بالتفوق على الأقران، ويمكن أن نعتبر اللفظ الأخير مضمون الفلسفة الرأسمالية. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو مَن هذا الآخر الذي استُبدل بالأب والأم؟

يمثل الوالدان (أو أحدهما) بالنسبة للطفل، موضوعًا يمنح الأمان والحب والرعاية، لذلك يسعى لكسب اهتمامه حتى تظل هذه الثلاثية مستمرة. ولدى خروج الإنسان من مرحلة الطفولة والمجتمع الصغير وانخراطه في المجتمع الكبير كإنسان راشد قادر على توفير الأمان والرعاية لنفسه، فإن الحب يحتاج

لطرف خارجي حتى تكتمل الثلاثية المحققة للتوازن. فإن كان الانتماء للمجتمع الصغير يتمثل في حب الوالدين (أو أحدهما)، فإن الانتماء للمجتمع الكبير يلزمه حب من أطراف منتمية لهذا المجتمع، يجده الشخص (الحب) في الصداقات والعلاقات العاطفية التي تفيد أيضًا التناسل أو الإشباع الجنسي.

فإذا كان الدافع للحسد عند الطفل هو خوفه من رفض الوالدين له وتعلقهما بالآخر، فإننا نقول بأن الدافع للحسد عند الراشد هو الخوف من رفض المجتمع له والتفات هذا الأخير لشخص آخر. نوضح هذه النقطة عندما نقارن تصرفات الطفل المقلدة لذلك المنافس ظنًا منه أنها هي من سبّب لفت الانتباه (وغالبًا ما يُلاحظ أن الطفل يعود بسلوكياته لسنوات طفولته الأولى)، من ذلك نجد الراشد يقلّد الشخصيات التي تلفت انتباه المجتمع كمشاهير الفن والرياضة وعارضي الأزياء، فالتشبه هنا والتقليد ليس حبًا في هذه الشخصيات بقدر ما هو محاولة لتحقيق الهدف الذي حققه النجم وهو الحصول على اهتمام المجتمع. هذا الحسد الغير ظاهر اخترنا تسميته بـ«الحسد اللاشعوري» أي الحسد المكبوت، كذاك الذي يكبته الطفل عندما يقلد أخاه الصغير؛ لأن حسده الشعوري يكشفه بالتعبير الصريح بِكُرهِه لهذا الصغير بل ومحاولة إيذائه وضربه، ولا يخفيه كما أشرنا بتلك الحيلة المذكورة.

منذ الصغر يتلقن الإنسان أن إظهار الحسد أمر مرفوض ويجعل صاحبه شخصًا شريرًا، لكن هذا الإحساس أمر طبيعي يظهر في الإنسان بحكم عَيشه واحتكاكه مع الآخر. لذلك فإن أي تفوّق يقوم به هذا الآخر، يجعل الشخص هنا في وضعية نقص قد تجعله مستبعدًا، لأن الآخر قد يُميل كفة انتباه المجتمع لجهته بفضل تفوقه. ولا نعني هنا بالمجتمع الجمهور بالضرورة، بل مجموعة من الأشخاص كالمعارف أو الأصدقاء أو حتى شخص واحد قد يختزل الإنسان فيه المجتمع كما نجد في العلاقات الغرامية. النقص هنا يدفع صاحبه لمحاولة إثبات التفوق حتى يعيد رجحان الكفة لصالحه، لكن الإحباط المستمر أو صعوبة تحقيق الأمر

تولد ألمًا داخليًا يدفع صاحبه للبحث عن فرص لتفريغ عدوانه باختلاق الخلافات وصراعات مع المتفوق، وقد نرى حدوث ذلك بين المشاهير أنفسهم، كما نراه يحدث بين الناس العاديين الذين يسقطون إحساسهم اللاشعوري على بعضهم البعض بتهمة الحسد وإفشال مشاريعهم، فبحسب الثقافة الشعبية فإن سبب الفشل المتكرر هو عين الحاسد التي تطلق أشعة لم تُكتشف بعد! كافية بتخريب طموح الآخر وقلب حياته، وهذا التفسير الذي لا يُضحك حتى لو اعتبرناه نُكتة، إنما هو في الأصل خرافة مصرية تعود إلى عين أبوفيس الشريرة المصورة على جدران بعض المعابد الفرعونية، تسربت إلى الحضارة اليونانية ثم الرومانية حتى وصلت عصر الحاسوب والآيباد. وأبوفيس بحسب نصوص التوابيت هو آلهة الشر في الميثولوجيا المصرية القديمة له شكل ثعبان، منه ارتبطت العين بالشر والسُم كما نرى في تعبير (النظرة سهم مسموم..) كسبب للخراب!! زيادة على بعض اللهجات العامية التي تشير للإنسان الذي يكره مَن يتفوقون عليه بلقب «المسموم» أو «المسمومة».

إن الإحساس الدوني المستمر يولد احتقارًا ذاتيًا يدفع صاحبه للتخلص منه، وذلك بإسقاطه على الآخر إثر أي فرصة سانحة لذلك، وباعتبار الاحتقار حالة تدميرية فإننا نراها بأوضح صورة في حالات الشغب التي يقوم فيها المعبرون عن غضبهم بتدمير ممتلكات الآخرين كرغبة لا واعية بحرمانهم مما هم محرومون منه، بغية محو الفروق وانتقامًا من تفوقهم، الأمر الذي يكشف لنا عن حسد لاشعوري كدافع. وإن سبق وذكرنا خلافات المشاهير وتحقير بعضهم البعض، فإننا نجدها كذلك بين رجال الدين الداعين إلى التخلص من الحسد كأسوأ أنواع الشر الإنساني. فما إن يكسب رجل دين شهرة ومعجبين حتى يتهافت الآخرون على تحقيره وكشف أخطائه بل حتى ينصحون معجبيه بأنه يُضلهم. وقد نلمس ذلك أيضًا في حديث كلا الجنسين عن شخص عندما يختمون(حديثهم) بـ«أنا لا أهتم، الله يزيدو» أو «لا أتمنى له إلا الخير»، لكن من لا يهتم لا يتحدث أصلًا عن الموضوع، وما الأمنية هنا إلا إخفاء لعكس ما

يضمرونه. وقد نجدهم لدى حصول الخراب، «يتحدثون عن آلام ومصائب وحيوات الآخرين وكأنهم مهتمون وقلقون بالفعل، ولكن الحقيقة أنهم يتمتعون بمعاناة الآخرين»(44). لأن من سببوا الألم صاروا الآن يعيشونه كذلك، وهذا كاف للتخفيف أو تفريغ إحساس الألم الذاتي، ويحصل ذلك مثلاً عند فشل الزيجات والمخاصمات العاطفية، حالات الإفلاس وما شابه ذلك.

إن الحسد أمر طبيعي بل هو شعور صحي يدفع الإنسان للإنجاز وإبهار الآخرين، فيجعله شخصًا قادرًا على العطاء، لكن عندما يطفو ويتضخم فيدفع للعدوان، يعتبر أمرًا سيئًا. وقد يعود السبب في ذلك للتربية والتلقين الذي يقيد الإنسان بأسلوب ونمط عيش محدد، فلا يختلف البشر عن القردة في تقليد بعضهم البعض، زيادة على التركيز على المقارنة بين الأفراد. وبالحديث عن المجتمع الاستهلاكي التملكي، فالوسائل (سيارة، بيت، أزياء، علاقة...) تصبح غايات يسعى الإنسان لامتلاكها، وتتسبب في آلام نفسية عندما يجد الشخص أنه دون الآخرين لا يمتلكها، فالإيحاء الاستهلاكي يُلزمه بأن لا يختلف على الآخرين، ويمتلك مثل ما يمتلكون وإلا فهو دونهم. وهذا ما جعل من التسوق الهواية الأكثر ممارسة في العالم!

أما عن احتقار الآخر من دون دليل على ذلك، فليس أكثر من «إشفاء غليل»، ومحاولة عكس الإحساس الداخلي وإسقاطه عليه. لذا يجب أن نتعلم كيف نفرح؛ لأنه «كلما تعلمنا كيف نفرح أكثر، إلا ونسينا أكثر كيف نؤلم وكيف نبتدع ضروبًا من إيلام الآخرين»(45). فكلنا حسدة لاشعوريين.

هناك فرق بسيط نريد توضيحه، هو أن الغيرة تختلف عن الحسد باعتبار أن هذا الأخير هو سعي الإنسان أن يمتلك مثل ما لدى الآخرين، أما الغيرة فتدفع صاحبها للانفراد بالشيء دون الآخرين أي رفض التقاسم والمشاركة، وغالبًا ما تقتصر فقط على العلاقات العاطفية. فالغيور هو من يرفض تقاسم حب الشخص المرغوب مع الآخر، وهو ما يعرف بالبخل على مستوى الأغراض. أما الحاسد

(اللاشعوري خصوصًا) فلا يرفض بالضرورة تقاسم الشيء إنما فقط أن يمتلكه أو يمتلك مثله ويلغي الاختلاف والتفوق. فكثيرًا ما يتم خلط هذا الأمر.

***

الألم النفسي.. الألم الغامض

ولربما ابتسم الوقور من الأذى وفـؤاده مـن حـرِّهِ يَتَأوَّه..

علي بن أبي طالب

يختلف الإحساس بالألم بين الأشخاص باختلاف الأشخاص، وذلك عائد لمقدرة كل شخص على تحمل الألم، أكان ألمًا نفسيًا أو جسديًا. فلا يمكن أن نحدده كإحساس في درجة معينة عند جميع البشر، لكننا نعلم أنه يمكن للألم إذا بلغ درجة معينة من القوة أن يشعر به أي شخص خاصة الألم الجسدي، إلا أن كيفية التعامل معه وتحمّله هي ما يوجد الاختلاف. فما يؤلم (جسديًا) طفل صغير يمكن ألا يؤلم شخصًا كبيرًا، ولكن قد نجد ما يؤلم (نفسيًا) شخصًا كبيرًا قد لا يؤلم طفلًا صغيرًا. ولزيادة توضيح هذه النقطة فلنفترض أن شخصين تربطك بهما معرفة أو نفس علاقة القرابة (جيران مثلاً)، وليكن الشخصان عبارة عن طفل وراشد. فيمكن أن تقول للطفل (بجدية) إنك تكرهه أو أي إهانة، فلا يهتم أو يسبك ويهرب وينسى الموقف بعدها، وقد تقولها بنفس الطريقة للراشد فتفجر بركان بداخله بفعلك هذا! فلا يُظهر أي رد فعل لكنه قد لا ينام الليل بسبب إهانتك! فإن كان الألم الجسدي واضحًا كرد فعل لمسبب مادي، فإن الألم النفسي غير واضح كرد فعل لمسبب سواء مادي أو معنوي يصعب تحديده. لهذا نقول إن الألم النفسي يعود للشخص وكيفية تعامله مع الواقع وتحليله لمعطياته، وشدة حساسيته كذلك تجاه الآخرين، فرغم أن مسبباته تكون خارجية فإنه يأتي من داخل الشخص.

وعكس الألم الجسدي الذي يذهب بغياب المسبب المادي الخارجي، فإن الألم النفسي قد لا يزول بزوال المسبب الخارجي. لأن انعكاس أحداث الواقع على عقله وتفاعلها مع معتقداته (كمؤثر معنوي) قد تساعد على تحفيز مراكز الألم في دماغه كما يقوم بذلك المؤثر المادي (كالجُرح الغائر). وبما أن الذاكرة تربط الألم

بالمسببات، فالمسبب المادي قد يغيب (ليغيب الألم المصاحب)، لكن الإحساسات الناتجة عن العملية الإدراكية أي الفهم (كمسبب معنوي) تتكرر باستمرار ولا تغيب بل يجب أن تتغيرا! كما تقول غادة السمان: إن الذاكرة والألم توأمان، لا تستطيع قتل الألم دون سحق الذاكرة! ليس إلى هذه الدرجة، بل قد يكفي أن تُغيّر (أو تصحح) رؤيتك لشيء حتى يتغير إحساسك ناحيته.

نجد اقتباسًا لماركوس أوريليوس يقول فيه: ارفع عنك إحساسك بالألم وسوف يزول الألم ذاته. وفعلاً فهذا ما نجده في عمليات التخدير (الموضعي أو العام) للقيام بجراحة لشخص، فالحقنة ترفع الألم بتعبير ماركوس ليزول عنك الإحساس بالألم أثناء القيام بالعملية، وهو ما تقوم به أيضًا العقاقير المسكنة للألم حتى يتمكن الشخص من النوم أو القيام بأموره الخاصة. فنحن نجد أن الإحساس بالألم يشغل كامل تفكير الشخص حتى إنه يرى أن السعادة العظمى ستتحقق بزوال هذا الألم. لماذا؟ لأن الألم هنا يقيد التفكير، نوضح بمثال: من الشائع أن حلم وأمنية السجين وتفكيره كذلك يدور حول الحرية؛ لأنه يرى أن السجن يحده من القيام بالممارسات التي يريد، وعندما يتحرر فإنه سيتمكن من الوصول لكل ما يحقق سعادة، لهذا يربط ألمه بسجنه وسعادته بحريته. لذا وبالعودة للمعني فإنه يرى أن ألمه كالسجن الذي يحده من القيام بممارسات تخلق أو تحقق سعادة، فيلزمه أن يتخلص من الألم ليخلص تفكيره من قبضة الإحساس بالألم، فيزداد تألمًا لأنه سجين للألم.

لكن قد يزول الإحساس بالألم بزوال مسبب الألم كما ذكرنا، لكن الإشكال هنا هو المسبب المتكرر باستمرار، فإن كان بإمكان المعني أن يسيطر على مسببات الألم الجسدي كتجنب الأغراض المؤذية أو عدم تكرار الأحداث أو الظروف المؤدّية للمرض، فإن الألم النفسي يتكرر بتكرر المواقف الاجتماعية التي تجمع الشخص بالآخرين، فقد يلجأ للعزلة كحل، لكنه في الأغلب يتحتم عليه المواجهة بحكم ظروف العمل أو المكانة الاجتماعية أو الموقع الجغرافي (بيئة يصعب فيها

الانعزال).

من المسببات التي تجعل الشخص يشعر بألم نفسي هو الضعف، فالإحساسات الناتجة عن المواقف التي يجد الإنسان نفسه فيها ضعيفًا هي ما تسبب له ألمًا، سواء شعور بإهانة أو تحقير من شخص ما دون استطاعة الرد (الشماتة والسخرية إلخ)، أو الشعور بالذنب لعدم القدرة على مساعدة الآخرين في موقف صعب (معاناة نتيجة فقر أو مرض)، الشعور بالنقص أو أنك أقل من الآخرين كعدم الحصول على ما تريد (الحرمان) أو أنك لست كما تود أن تكون (عدم الرضى عن الذات).

جميع هذه المواقف تؤلم المعني؛ لأنه كرغبة منه في أن يتفوّق على الواقع، يرى أن الواقع هو مَن تغلب عليه، أي أنه شخص ضعيف. وهذا ما نجده في فيلم النينجا الحشاش (Ninja Assassin) لدى قول المعلم لتلميذه إثر تدريبه على التّحمل: «الألم يغذي الضعف. تذكر أن المعاناة موجودة فقط لأن الضعف موجود. يجب أن تكره (تتخلص) من الضعف. اكرهه في الآخرين، لكن الأهم هو أن تكرهه في نفسك». ويمكن أن نجد هذه الفلسفة كقاعدة لدى الكثير من مدارس الفنون القتالية الآسيوية (بالأخص)، الهدف منها تقوية الجسد للتغلب على الخصوم بسهولة. رغم أن هذه الفنون ترتكز على الدراية بالجسد الإنساني والقدرة على الإحاطة بنقاط ضعفه حتى يسهل شلّه بأقصى سرعة وبأقل مجهود، إلا أنه قد نجد كثيرًا ممن يُعبّرون في هذه الرياضات على سادية ومازوخية واضطرابات عقلية! زيادة على صراخ وجذب كأنهم قطيع من حيوانات لم تُكتشف بعد!!

فحتى لو اعتبرنا أن الجسد يمكن أن يصير صلبًا كصخرة! فيمكن لكلمة أن تدمره، فما أغرب ما تفعله بنا كلمة واحدة في بعض الأحايين بتعبير جبران خليل جبران. وترينا الطبيعة الكثير من الحيوانات القوية، لكنها رغم ذلك تعجز عن الحصول عما تريد أو حتى البقاء، وهذا ما دفع بداروين لاستبدال تعبير «البقاء للأقوى» بـ «البقاء للأفضل»، فالأفضل هنا لم يعد الأشرس بل من له قدرة على

التكيف والتأقلم في البيئة. فلو كانت القوة العضلية تخلص من المعاناة، لتخلص الحيوان من سيطرة الإنسان وخدمته. ليظهر بذلك أن العقل كأداة، أعظم قوة!

وبهذا نعود للكلام المقتبس من الفيلم ونقول: «المعاناة موجودة فقط لأن الضعف موجود، والضعف موجود لأن الغباء (الجهل) موجود. يجب أن تكره(تتخلص) من الغباء. اكرهه في الآخرين، لكن الأهم هو أن تكرهه في نفسك». فغباء الحيوانات (بمعنى ما) هو ما جعلها أضعف من الإنسان (الأضعف عضليًا منها)، بل غالبًا ما قد نجد أن الغباء هو ما يسبب لصاحبه الألم أكثر من الضعف. بل حتى في الفنون القتالية التي تعتمد على قوة الجسم، فإنه كلما تراكمت سنين الممارسة زاد اعتماد الشخص فيها على عقله أكثر من قوته الجسدية، وهذا الأمر بالنسبة لجميع الرياضات.

رغم أن الإنسان يكبر، إلا أن رؤيته للواقع لا تتغير منذ أيام طفولته: حينما كان الجميع يُقدّره بسبب وجوده فقط، خصوصًا الأب والأم والإخوة أحيانا الذين يظهرون اهتمامًا نحوه فقط لأنه موجود بينهم. هذا المنظور الطفولي يؤلم الشخص عندما يكبر، لأن المجتمع لا ينظر إليه بنفس الطريقة، فالمجتمع لا يقدرك لتواجدك كالماما والبابا! بل بما تقدمه وتعطيه كإنجازات في مختلف الميادين. لذا قد يشعر الشخص بواقع غريب (اغتراب) أو دونية ما يمكن أن يسبب ألمًا نفسيًا.

قد يسبب الاحتكاك الاجتماعي ألمًا نفسيًا للشخص، وهذا يعود للقيمة المضافة التي يمنحها الشخص للآخرين، فأي تصرف أو لفظ سيئ تجاهه يراه كأذى أو إهانة حتى لو لم تكن بطريقة مقصودة، وهذا طبعًا نتيجة حساسيته الزائدة تجاه الآخرين واهتمامه بردود أفعالهم تجاه. وهذا سببه الغباء! فمن الغباء رؤية الآخرين ككائنات خارقة أو كاملة، فأغلب البشر لا يختلفون عن الحيوانات إلا بابتسامة وملابس مضحكة! فهل إذا نبح عليك كلب؟ تعتبر هذه إهانة؟! طبعًا لا، إلا إذا كنت ترى الكلب ككائن أفضل منك؟!! لأن من لا يعانون من مشكلات

نفسية وجنسية وعقد نقص ورقص وفقص! أي شيء سيستفيدونه من إيلامهم للآخرين أو التسبب لهم في الألم (فالأغبياء والحمقى والمعقدون هم من يؤذون الآخرين). ولا ننسى طبعًا أن الأمر قد يتعلق برؤية المعني للآخرين وتفسيره للمعطيات بطريقة عوجاء، أيدخل هذا ضمن الغباء؟ ربما! لأن الغباء قد يسبب مشكلات نفسية كما اجتماعية.

تشير بعض الدراسات إلى أن الألم النفسي (أو حتى الجسدي) يختلف بين الجنسين على مستوى الإحساس (الدرجة)، وهذا قد يعود للتربية المختلفة للجنسين، كما يشير بذلك مورافيا في رواية «الاحتقار» إلى أن النساء مثلهن مثل الأطفال وذوي النفوس الضعيفة يعلقون على البكاء قيمة من الإقناع العاطفي، أو كطريقة للشكوى أو الشكاية بتعبير نيتشه: «أوليس كل بكاء شكوى؟! أوليس كل شكوى شكاية؟». باعتبار أن الضعف مُكوّن من مكونات شخصية الأنثى (ولا نعلم أي عبقري توصل لهذه النظرية الخرافية في التاريخ). لكن أن تذهب تلك الدراسات إلى القول أن السبب يعود لاختلاف البنية الفيزيولوجية أو الجهاز العصبي لدى كل من الرجل والمرأة، فسبب قولهم هذا يعود لذكائهم الذي تجاوز الحد فمكّنهم من رؤية أشياء غير ظاهرة لغيرهم!

وربما أو لمَ لا قد تظهر دراسات مستقبلية تُبيّن أن الجن له قدرة على تحمل الألم النفسي أكثر من البشر! هذا إن لم تكن موجودة في كتب مُصارعي الجن!!!.

قد يكون الألم (خصوصًا النفسي) دافعًا لصاحبه لتغيير الواقع أو القيام بإنجاز، لكنه قد يدخله كذلك في حلقة من التذمر والاكتئاب، كما يقول ديفيد روباثوم (إخصائي في معالجة الآلام والتخدير): «إن الألم متعدد الأبعاد ويعتمد على الموقف الذي يجابهه الشخص». وكذلك على نفسية هذا الشخص.

لذلك فكل من يسبب لك ألمًا، بالأخص لو كانت تربطك به ظروف تجعلك تلتقيه بصفة متكررة أو متقطعة، فيلزم أن تواجهه بذلك لا أن تكبت الأمر في نفسك. فقد تجد أن هناك من يسبب لك ألمًا دون أن يدري، لهذا يجب أن يعلم. بل

نود أن نضيف أنه يجب أن تُوقِف كل شخص يحاول أن يسبب لك ألمًا عند حدّه وتواجهه بذلك. كما يقول غابرييل ماركيز: لا أحد يستحق دموعك، ولئن استحقها أحد فلن يدعك تذرفها. فإن استحق شخص ما حبك وصداقتك، فيجب ألا يسبب لك ألمًا، وإن سببه فهو لا يستحقك، أو أنك تستحق ما يسببه لك لأنك سمحت له بذلك! فأن تصبر حتى لا تخسر شخصًا، وتعزي نفسك بالعقاقير حتى تهرب من الألم الحالي: فانتظر من الأعراض الجانبية ألمًا قادمًا أشدّ!

* * *

الألم والجهل

نعم هو موجود في كل مكان وزمان، يعرفه الجميع واختبروا وجوده جيدًا كلامي ليس عن الله بل عن الألم

نيتشه

من المتداول في الثقافة الشعبية والدينية للمجتمعات أنه:

عندما يمرض المؤمنون أو يعانون ويتألمون فإن الله يطهرهم بذلك من الذنوب ويختبر إيمانهم: مقبولة!. لكن عندما يمرض غير المؤمنين أو يعانون فذلك عقاب لهم من عند الله، فكل المتألمين من المخالفين عقائديًا يلقون جزاءهم نتيجة جحودهم، لذا يلزمهم أن يعودوا لله ويعتنقوا نفس العقيدة حتى يخلصهم الله من آلامهم: لكن أليس مستبعدًا أن يعانوا كذلك باعتبار أن الله سيختبر إيمانهم بعد إيمانهم؟!

نجد كثيرًا من التفاسير الغريبة التي تحاول فك هذا التناقض الفكري: منها أن الله يختبر الناس حتى يكشف حجم وقوة إيمانهم به (للتأكد)، ونظرًا لأن الملتحقين الجدد يجب العمل على صقل إيمانهم، فإن تعرضهم لِمأساة كافٍ بأن يحدد وجودهم إما بخانة المؤمنين الواثقين أو المرتدين الذي يبرهنون عن ضعف إيمانهم وعدم استحقاقهم لرحمة الرب؛ فإذا انتهت معاناتهم فقد خَلَصَ بذلك الاختبار: وإذا تم ذلك وهم ما زالوا متشبثين بإيمانهم، فهذا الأخير هو من أنقذهم من مآسيهم. وإذا لم تنتهِ معاناتهم ومع ذلك ما زالوا متشبتين بإيمانهم، فالله يزيد من درجة الاختبار حتى يرفعهم لدرجة القديسين والمقربين إليه، وهو ما تتم الإشارة إليه بأن الأنبياء هم أشد الناس بلاء (لذلك رُفعوا لمقامات اجتماعية عالية).

سنَلْتَفُ لنعيد رؤية الموقف من جانب آخر، وهو جانب الأشخاص الذين يفقدون إيمانهم بالله أو يلجئون لمعتقدات مغايرة عند انتهاء الاختبار (المأساة)،

فمن يتخلى عن إيمانه قبل أو بعد الاختبار، فإن الله قد تأكد من إيمانه، وبذلك خلّصه من معاناته لأنه لم يصبر ويظهر تشبته بالاعتقاد، لذلك فإن الله لن يهتم أو يلتفت إليه. أما إذا استمرت المعاناة رغم فقدانه لإيمانه، فإنه الله يعاقبه على شكّه: فلو كان إيمانه كاملاً لخلّصه الله من ألمه!

ولا تقف هذه المتاهة الفكرية عند هذا الحد، فعندما يعيش مؤمنون في نعيم ورفاهية كمظاهر للثروة، فالله يمنح ويزيد من عطائه لمن يشكرون نعمته. أما إذا كان الأمر ينطبق على منكرين له، فالثروة والمزايا ليست إلا إلهاء من الله للجاحدين ليستمروا على موقفهم، فالمتعة والرفاهية ليست ممنوحة إلا كفخ حتى يأتي يوم ينقلب الأمر عليهم ويتلقوا معاناة وألمًا كجزاء على عدم شكرهم واعترافهم بنعم الرب.

فالإنسان في ظل هذه الثقافة والمعتقدات غير محدد الموقف. فهو يعاني: قد يكون سبب ذلك حبًا من الرب وفي الوقت نفسه قد يعني عقابًا. وفي كلتا الحالتين فموقف الرب ناجم عن حب حتى إن الجحيم مظهر من مظاهر حب الله للبشر، برأي نيتشه.

وبالرجوع لما يهمنا وهو تذبذب الإنسان، وكما قلنا بأن المعاناة قد تعني الرضى أو العقاب، فإن الرفاهية قد تعني كذلك العطاء الناجم عن الحب وبنفس الوقت الكره! لكن بالنسبة لمن يفسرون الأمر على أن هذه الشطحات يفهمها المؤمنون فقط. فنحن نقول أن هذا نتاج فكر عسكري (حربي) مُعادِ: إن لم تكن معنا فأنت ضدنا. فالعسكري دائمًا يرى (كاعتقاد) أنه يمثل الحق (الخير) والعدو (الآخر أو المختلف) يمثل الشر. لهذا نجد النوعية التي تلبّسها الفكر السابق ذكره: ترى في المواقف المتشابهة بينها وبين الآخرين، أن موقفها موقف خير، والآخرين موقف شر. رغم أنه قد يكون نفسه!

من هنا يتمزق البعض فكريًا فيجدون موقفهم مشابهًا لما وصفه وديع الصافي في أغنيته: «بدي أعرف حالي وين، نايم على أيا مخدة»(46). مخدة التخلف

طبعًا!!

عندما يشعر الإنسان بالملل، فإنه يتزوج! رغم أن الأمر بدأ يصعب مؤخرًا بالنسبة لذوي الدخل المحدود أو البطاليين. إلا أن الأهل غالبًا بالمرصاد ليساعدوه، نظرًا لاعتقاد شائع أن الزرق يزيد ويأتي من حيث لا يدري الإنسان عندما يتزوج. ولكان رائعًا لو قام المتحمسون لهذه الأفكار بشرح الأمر بطريقة مفهومة وليس بتعابير غامضة كما تفعل العرّافات عندما تخبر الزبائن بتحقق غرض ما بعد ثلاثة أزمنة، وهي للتحديد تمتد من 3 أيام إلى 3 قرون (المهم ثلاثة!!) بالنسبة للغة العرافة المبهمة!

فالإنسان سيتزوج وهو لا يملك شيئًا والله سيتكفل بذلك، مع العلم أن الطرف الآخر لا يمتلك ثروة وبوضع اقتصادي أسوأ.. أمر لا يتقبله إلا كسول أو مُغفل حتى يُقدِم عليه. ويا ليت الأمر انتهى هنا، بل تستمر الاعتقادات الدينية والشعبية لحد قول أن الثروة (الرزق الوفير) تأتي عند الإنجاب (ويستحسن أن ينجب الإنسان الكثير من الأولاد)، وهذا أمر مفيد لو كان الإنسان يمتلك أرضًا زراعية لأنهم سيساعدونه، وهذا ما كان عليه الأمر في المجتمعات والأسر الزراعية. أما في المجتمع الرأسمالي والصناعي وتحت ضغط الاستهلاك وغلاء المعيشة، فهذا.. «أجهشت بالبكاء ولا أقدر على المتابعة»!!

والغريب هو أن الإنسان لا يستفيد من التجارب الواقعية حوله وكأنه مُحشّش، يسهم في التكاثر الزائد عن اللزوم وصناعة الزحام وزيادة الفقر وتثبيت الجهل ثم يعيب على الدولة والقانون والبرلمان والولايات المتحدة وإسرائيل والإعلام ويرفض إقامة المهرجانات (التي يملأها أبناؤه بالشغب) والعري، وهو وأمثاله أكثر من عرّى المجتمع! وهذا نتيجة امتلاكه لتلفاز وقراءته أحيانًا للجريدة! فتخيل(ي) لو كان يقرأ مؤلفات ماركس وإنجلز وروزا!!

ما يجعل الناس متشابهين في التصرفات وحتى في الحديث (المواضيع المتداولة) هي الأنماط الفكرية. والنمط الفكري مثله مثل مسار فأر مرسوم

بوضوح في متاهة معينة، يذهب فيه الفأر ذهابًا وإيابًا للحصول على الجبنة وإذا ما تم و انحرف عنه فقد يضِل أو يتوه. نفس الأمر ينطبق على المجتمع فالمسار هو النمط الفكري (المولد للسلوكيات والمبرر لها) لذلك نجد الناس يسلكون تصرفات متشابهة (وهذا ما يحصل في الطبقات المعينة والعائلات والجماعات كذلك بأوضح صورة) ويعيدون تشكيل نفس المفاهيم الثقافية والمعتقدات كدورة استهلاكية. لذا يظل السير على نفس المسار (النمط) تجنبًا للانحراف أو الضياع! المسار الذي لا يتغير إلا إذا حدث انقلاب اجتماعي نتيجة ثورة فكرية أو صدمة ثقافية (تغييرًا طفيفًا حتى).

من هذه غرائب العقلية النمطية أنه:

- عندما يموت طفلك الصغير، فهذا اختبار من الرب إذا كنت مؤمنًا، وهو دعوة للعودة إليه إن كنت مستهترًا أو منكرًا!

- طريقة الموت تحدد موقف الرب اتجاهك، فإن سقطت من سطح عمارة (دون حاجة أن تكون سكرانًا)، فأنت ذاهب للجحيم نظرًا لسوء خاتمتك، لكنك تعتبر شهيدًا وتذهب للجنة إذا كنت مؤمنًا!

- عندما تقع في ورطة أو حادثة، فهي كانت ستأتيك ستأتيك!.. لذا قم بهدم منازل البشر أو هشّم عظامهم وألقِ بالمسؤولية على القدر، فذلك قدرهم «المكتوب ع الجبين لازم تشوفو العين»! عالم مُزفث!

- صوت الأغاني المسموع يعتبر إزعاجًا للناس وتعديًا على حرياتهم، أما الترانيم والأناشيد الدينية فليست كذلك!.. إن كانت الهالالويا مقدسة عند المسيحي فلما يسمعها المسلم رغمًا عنه؟! والعكس كذلك.

لكن ما يجب أن تدركه هذه العقلية النمطية هو أن:

- كبت الغرائز لا يعني أنه تم التحكم فيها، فهي لا تطيع سوى المعرفة، المعرفة التي خفّفت من وجع الضرس الذي يقف الدين والدعاء والإيمان وكتب التطوير

والبرمجة والإيحاء و«الزعت البلدي» أمامه عاجزين.. رغم بساطته.

- الدين يعلم الآداب، لكن هذا لا يعني أن المتدينين مؤدبون.

- الدين يحث على الرحمة، لكن هناك رحماء غير متدينين.

- من ليس معنا قد لا يكون ضدنا، وقد يكون ضدنا مَن هم معنا.

التناقض الفكري والحماقة الثقافية تستمر باستمرار اعتماد الإنسان على الأنماط الفكرية والمعتقدات المتوارثة (حتى لو تمت زخرفتها) بدل الاستماع لصوت العقل؛ لأنه و«منذ القدم كان صوت الجهل هو الأعلى يقود الشعوب ويجبرها على الانصياع» كما قال دان براون.

حتى الخوف والألم قد لا ينتجان إلا عن جهل.

***

عقدة المهاجر

إن العالم كله يعتقد أننا نرحل للتمتع بحياة سهلة لا يعرفون كم من الصعب أن تشقّ(ي) طريقك في عالم غريب.

ميلان كونديرا

عندما يخرج الطفل في نزهة أو الذهاب للمدرسة، فإنه يحن بعد مدة للعودة إلى البيت، وعندما يكبر ويصبح شابًا فيسافر إلى مدينة أخرى للدراسة أو العمل فإنه يحن كذلك بعد مدة للعودة إلى مدينته، ونفس الأمر يحدث إن غادر دولته فإنه بالتأكيد سيحن للعودة إلى بلده. بل حتى لو سافر الإنسان خارج الكرة الأرضية فإنه لسرعان ما يحن للعودة إليها، كما في قول فيليكس بوغمارتنر: «دعني أقول لك - عندما وقفت هناك عند قمة العالم.. أنت لا تعود تفكر في تحطيم أرقام، أو كسب بيانات علمية - الشيء الوحيد الذي ترغبه هو العودة سالمًا»(47). بدل أن تكون الرغبة (كما يتصور أي شخص) البقاء على الأقل هناك لمدة، فآخر شيء سيفكر فيه (أي شخص) هو العودة؛ لأن الأهم هو الاستمتاع بالمنظر!! لكن عندما يجد الشخص نفسه في عالم (مكان) جديد وغير مألوف فكل ما سيرغب به هو العودة لعالمه الذي يألفه والذي يحس فيه بالأمان، فالعالم الجديد يمثل المجهول والإنسان بطبعه يفضل المألوف على المجهول. فالعالم المجهول قد يتعرض فيه (زيادة عن الأخطار) للرفض ككائن غير مرغوب عكس عالمه المألوف المُتقبّل فيه بلا مجال للشك.

لهذا نود أن نوضح فكرة أن الغربة إحساس وليس بالضرورة تغيير أمكنة.

وبعودتنا للتدرج الذي سردناه في البداية، فالطفل يحن للبيت؛ لأن الأماكن الأخرى تظل بالنسبة إليه مجهولة، والشيء نفسه في المدينة الجديدة أو البلد الجديد، فهما يعتبران عالمًا مجهولاً بالنسبة للمهاجر: هذا العالم الذي لم يألفه بعد يمكن أن يتعرض فيه لاحتمال القبول أو الرفض، بعكسه عالمه المألوف كالبيت

والوطن أو حتى الكوكب، أي المكان الذي يتقبله ككائن وينتمي إليه. ولنوضح نقطة هنا قد تبدو ملتبسة وهي اغتراب الإنسان في بلده (كمثال الهجرة من مدينة إلى مدينة)، فالأمر هو أن الإنسان كلما زاد في اختراقه للمجهول صار كل ما سبق مألوفًا، فالبلد الأجنبي الذي قد يجد الإنسان نفسه فيه مغتربًا، يصبح عالمًا مألوفًا إن وجد نفسه خارج الكوكب، فالمكان الأخير (الفضاء) باعتباره أكثر غموضًا يُغطّي على ما سبقه؛ فلكم سيُسعد الإنسان بعودته (من خارج الكوكب) سواء وقع في كوريا أو في فنزويلا! ونفس الأمر قد يحدث لو غادر الإنسان المجرة، فسرعان ما سيحن لدرب التبانة كحنينه للوطن أو المدينة!!

ونجد توضيحًا في خطاب رائد الفضاء ليونوف ألقاه أثناء سافتتاح مؤتمر، يقول فيه: «إنه في اليوم الأول للدوران حول الأرض فإن الرائد يكون مشغولاً بالبحث عن مدينته، وربما عن بيته. وفي اليوم الثاني يكون مشغولاً بالبحث عن بلاده كلها. وفي اليوم الثالث ينشغل بالبحث عن قارته. أما في اليوم الرابع فإنه يكون مشغولاً بالنظر إلى كوكب الأرض كله.. ويصبح همُّ الإنسان الأكبر هو الأرض وليس بيته ومدينته ودولته وقارته..»(48).

فالحنين إن نقّبنا عن أصوله في طبيعة الإنسان، سنجده حنينًا لحضن الأم، الحضن الذي يحقق الأمان والرعاية والاهتمام. وهو المكان الذي يستحيل (ربما!) أن يلقى الإنسان فيه الرفض. وهذا ما نجده على المستوى الشّعر (كتعبير انفعالي) بتشبيه الوطن بالأم و أرضه بحضنها. وبحسب وجهة نظر الفرويدية الكلاسيكية فإن الحنين هنا قد يكون رغبة الشخص في العودة لرحم الأم، لكن هذا الأخير كرمز، تعبير عن الانسحاب والعودة للعدم وليس بحثًا عن الأمان كما يعبّر عن ذلك الحضن، فليس في العالم وِسَادَةٌ أنعم من حضن الأم بتعبير لشكسبير.

من الداوفع التي تحض الشخص على الهجرة هي صعوبة العيش في الوسط المألوف، فغالبًا ما يقوم بذلك مضطرًا كالنفي واللجوء السياسي أو عدم إيجاد

عمل مناسب، أو في حالة الدراسة: وهنا قد نجد الدافع طالما أن المهاجرين شبان خرجوا للتو من فترة المراهقة أو ما زالوا فيها، فإن الرغبة (سواء عن وعي أو لاوعي) هي الاستقلال والانفصال عن الأسرة وما تفرضه من سلطة ومراقبة وتضييق للحرية. زيادة على أن الوِجهة المستهدفة قد تكون بيئة متحررة ومتقدمة تناسب الفترة العمرية الثورية والمتمردة عن رجعية المجتمع الذي ينتمون إليه.

إذا سافر الإنسان سائحًا فإنه يأخذ صفة الزبون للمكان الذي سيزوره، أما إذا سافر (هاجر) من أجل البحث عن عمل فهنا يأخذ صفة خادم ما عدا طبعًا مَن تتم دعوتهم. فهنا إحساس الدونية الذي هرب منه المعني في عالمه، يجده منتظِرًا في العالم الجديد، فغالبًا ما نجد الدافع لترك الوطن هو الكره الناتج عن الإحساس بقلة الشأن داخل المجتمع. فإن كانت (الدونية) في الموطن محسوسة، فإنها في الغربة تكون متوقعة ليبدأ المهاجر بترصد أي سلوك قد يؤكد ذلك. بل قد يتم تأويل بعض تصرفات أفراد البلد المضيف على أنها احتقار أو رفض. وهذا لا ينفي طبعًا وجود احتقار (واعي أو لاواعي) للمهاجر، فهناك أحزاب سياسية تُعلّق سبب الأزمة الاقتصادية أو تدهور الأوضاع بصفة عامة على المهاجرين. فتبدأ بنسج تخاريف تفيد أن إرجاع المواطنين كاف لتحويل البلد إلى فردوس. غير أن مثل هذه النوعية تشبه الطفل الصغير الذي يصد ويكره كل من يشاركه أمه، إلا أن هؤلاء (الأطفال كذلك) يقومون بنفس الشيء لمن يشاركهم حليب الأم وثديها.

اندماج المهاجر يتطلب تكيّفًا مع طقوس المجتمع الجديد، لكن أغلب الأشخاص كرد دفاعي يرفضون ذلك باعتبار أنهم سيُضحّون بهويتهم أو ثقافتهم وأناهم، ومن المعلوم أنه يصعب الاندماج في أي جماعة طالما أنك لا تتقبل أفكارها وممارساتها. فهنا يحس المعني بأنه مُبعد وغير مرغوب، لذلك يقوم بخلق رمز الوطن (الأم) طالما أنه بعيد. فيظهر الدين كطوق ينقذ من الغرق في ثقافة

المجتمع المحتضِن، لهذا كثيرًا ما يستغرب الأهل لدى عودة الشخص أكثر تدينًا مما كان. فالمعبد كمسجد أو كنيسة يمثل حضنًا يمنح الأمان، فيتجمّع حوله الأفراد كما يتجمع الصغار حول الأم.

فإخوة الدين وإخوة الوطن يلتحمون ليشكلوا بذلك أقلية تدافع عن هويتها المهددة بالتفسخ داخل المجتمع الجديد، فكثيرًا ما تجد مهاجرين عاشوا لسنوات دون أن يتقنوا اللغة بشكل جيد، فالتواصل يدور غالبًا بين أبناء الوطن وأبناء الأوطان الشقيقة.

قد لا يتعرض المهاجر لأشكال من العنصرية من أبناء الوطن المستضيف فحسب، بل أحيانًا قد يتعرض لها من مهاجرين من بلدان أخرى أو حتى من أبناء وطنه وعالمه. وهنا يمكن أن يلعب التحويل دورًا، فالمهاجر الأقدم أو الأغنى قد يمارس فعلًا عنصريًا على مهاجر جديد أو أقل مكانة (اقتصاديًا) منه، كمحاولة للتخلص (تحويل) من تقليل الشأن الذي مورس أو يمارس عليه من السكان الأصليين! فبقلب الدور على المهاجرين الآخرين يوهم نفسه أنه صار ينتمي للمواطنين الأصليين، كمحاولة لإخفاء عقدته الدونية.

إن كنا نتحدث عن المهاجرين للعمل، فالأمر لا يختلف كثيرًا عن المهاجرين بغرض الدراسة، فحتى هاته المجموعة تحس بدونية في المجتمع الجديد بدءًا بأنها هاجرت بسبب واضح هو أن مؤسساتها أقل شأنًا ومستوى من مؤسسات الوجهة المستهدفة. ففي كلتا الحالتين يَنظر المهاجر للمجتمع الجديد بأنه عالم أقوى وأفضل، فهو عالم متفوق بأفراده ومؤسساته، ومنه تلازم المهاجر عقدة دونية (نقص شأن) خلال فترة تواجده، ليَظهر الحنين (حلم العودة) كتخفيف عن وطأة الإحساس بالغربة. دون أن ننفي طبعًا قدرة البعض على الاندماج رغم أن اللعنة قد تصب من جهة «أصدقاء الأمس» كخيانة للانتماء وتضحية بالهوية! وذلك بسبب عجزهم عن إدراك أن «الهوية بنت الولادة لكنها في النهاية إبداعُ صاحبها، لا وراثة ماضٍ»(49).

من أهداف المهاجر في العودة (بغض النظر عن رؤية الأهل) هو تغيير نظرة المجتمع الأم له: فالدونية التي فرَّ منها لعالم الغربة، عاد لينتقم ويُظهر أنه صار فردا يستحق الاحترام. وهذا ما يبدو في تصرفات بعضهم المضحكة لدى عودتهم ومحاولتهم إظهار الثروة والرفاهية كتعويض عن عقدهم المكبوتة. فيُظهر لمجتمعه أن الشخص المحتقر عاد ليزورهم كأن الزائر أمير موناكو! لكن ما يخفى هو أن منهم من كان يَقلِبُ سلة قمامة كبيرة لينام فيها أو في المحل الذي يشتغل به، وأنه يخرج متسللاً كالمجرم حتى لا تمسكه الشرطة وتعيده، زيادة عن القيام بالأعمال التي تبدو بالنسبة له وضيعة إن عمل بها في بلده. لكن كل شيء يهون أمام العودة والانتقام. وكثيرًا ما يرفض البعض العودة مبررين ذلك بكرههم لعالمهم القديم أو أنهم صاروا ينتمون بأسرهم للعالم الجديد، غير أن السبب الخفي هو العجز عن العودة وتحقيق الانتقام، فما يتوفرون عليه اقتصاديًا لا يكفي لتحقيق المطلب كما يتخيلون.

تقول إلينور وهي زوجة الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت: لا يستطيع أحد أن يجعلك تشعر بالدونية دون رضاك. فالإحساس الذاتي بقلة الشأن هو ما يساعد الآخرين أو يسهل لهم تحسيسك بذلك. أما بالنسبة للفاشلين الذي يحلمون بأنهم سيخلقون واقعًا إن غيروا عالمهم وأن سبب فشلهم هو المجتمع الحالي، إنما هم يُخفون مسؤوليتهم عن وضعهم، فالفاشل يظل فاشلاً أينما رحل وارتحل طالما لم يغير نظرته وتفكيره ولم يتحمّل مسؤولية أفعاله. الاختلاف البسيط هو أن منهم من يقبل بوظائف (مضطرًا) لا يرضى أن يعملها في موطنه. وغالبًا ما يعتمد أشباه سندريلا هؤلاء، على أميرة تأتي من البلاد البعيدة لتلبسهم الحذاء وتأخذهم لعيش حياة النعيم. تبًا لسندريلا وعقدتها! تبًا لبيتر بان الطفل الذي لا يكبر! تبًا للرسوم المتحركة!!

الوطن ليس هو المكان الذي وُلدت أو نشأت فيه، وليس الذي يوجد به أهلك أو أصدقاؤك. وطنك هو المكان الذي تُعامل فيه باحترام وكرامة. الوطن هو المكان

الذي لا تحس فيه بمهانة أو فقر. فإن كان فولتير يقول إن: خبز الوطن خيرٌ من كعك الغُربَة. فإن علي بن أبي طالب يجيبه: الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن. لكن ما يحل هذا الخلاف هو أريستوفان بقوله الجميل: الوطن هو حيث يكون المرء في خير.

* * *

أصول الفوبيا

لا يوجد شيء مخيف إلا الخوف نفسه.

فرانسيس بيكون

الفوبيا هي تفسير سيئ أو فكر خاطئ يعتنقه الإنسان حول موضوع ما، فيُوّلد لديه ردود أفعال لا منطقية لدى حدوث مواجهة مع ذلك الموضوع. وبما أن الفوبيا أو الفوبوس كمصطلح يوناني يشير للخوف، فاختيار الخوف كرد فعل هنا يشير لضعف المعني أمام قوة الموضوع، أو أن هذا الأخير تضخّم قوةً وحجمًا في عقله. وبهذا نعود فورًا لطفولة الإنسان حين كان يرى نفسه في تلك المرحلة بالذات، كائنًا ضعيفًا وصغيرًا مُحاطًا بكثير من الموضوعات المُهدّدة والمُخيفة. تسهم كذلك عوامل التربية طبعًا.

يتشرب الطفل الخوف من خلال التقليد، أي محاكاة تصرفات الكبار حوله وبالأخص أمه وأباه. وباعتبار أنه يكتسب ثقافته وقدرته على التواصل من خلال وسطه الأسري والمجتمعي، فما أن يلاحظ الطفل أن أمه أو أي فرد من وسطه (الكبار) يبدي خوفًا ورعبًا من شيء أو موقف ما، فتلقائيًا سيُظهر الطفل كذلك خوفًا، كيف لا؟ وهو يرى شخصًا أقوى وأكبر منه يَجبُن أمام هذا الموضوع، فما بالك به هو الضعيف قوة والصغير حجمًا. لهذا غالبًا ما نجد الطفل يخاف مما تخاف منه أمه أو إخوته، إن لم يتدخّل أحد ما ويوضح له الأمر.

كذلك قد يتشرب الطفل مخاوف وهمية من خلال التربية الرديئة، وهي عندما تعتمد بعض الأسر لكبح تصرفاته المشاكسة على تخويفه بالعفاريت والجن واللصوص أو الشرطة وما سواهم ممن يعتبرون غرباء بالنسبة للصغير. أو تهديده بالسفر وتركه أو أخده لمكان بعيد وما شابه ذلك من وعود النفي. بل والأسوأ هو تخويفه بالعذاب الديني وتهديده بالجحيم! تبًا للفراعنة!!

وأيضًا قد تساعد الخبرات المؤلمة على نمو الخوف وتضخيمه، مثلا إن قام

شخص برمي قِط أو جرادة على طفل، أو قام بإلقائه في المسبح، وغالبًا ما تظن مثل هذه الديناصورات أنها بقيامها بمثل هذه الأفعال فإنها تُخلّص الطفل من المخاوف. بل على العكس، فعقله يقوم بزيادة تثبيت الخوف وتضخيمه؛ لأن الخبرة السابقة أكّدت قوة الموضوع وكشفت ضُعف الصغير أمامه.

رغم ذلك يتجاوز الطفل هذه المخاوف خلال طفولة ما قبل المراهقة، فكثيرًا ما يتمسّك الأطفال بمخاوفهم في طفولتهم المبكرة والمتوسطة طالما أنها تحقق لهم سيطرة على الآخرين وتجذب اهتمامهم. فيستغل الطفل هنا مثلاً العفاريت حتى ينام بجانب أمه، ويستغل الحيوانات الموجودة بالشارع كالقطط والكلاب ليظل محمولاً. وهنا نريد توضيح نقطة مهمة، فقد تجد الطفل يخاف من الفأر (كرد فعل مكتسب من الأم)، لكن ما إن يرى أقرانه يطاردون فأرًا ويستمتعون بذلك، حتى تجده هو الآخر انخرط معهم. فأصدقاؤه هنا غيّروا بسهولة فكرته وموقفه المُتخذ أمام الموضوع، أي صححوه له.

تظل الفوبيا مصاحبة للإنسان حتى في كبره، وبالأخص المخاوف الناتجة عن خبرات مؤلمة حدثت له، أو حصلت لبعض معارفه. فيتقمص في كل مرة يجد نفسه في الموقف المشابه نفس الإحساس أو رد الفعل الذي عاشه يوم الصدمة (التعرق، تسارع دقات القلب، الارتجاف إلخ). وكل موقف مشابه يزيد من تعزيز الخوف ويشل من قدرته على التعامل معه، رغم أن المعني قد يدرك تفاهة تصرفاته، لكنه يجد نفسه عاجزًا عن تغيير موقفه. لماذا؟ لأن الاعتقاد المولد للسلوك (رد الفعل) ما زال مُعشّشًا في عقله. لكنه قد يحدث ويتخلص المعني هنا من خوفه إن تعرض لموقف خطر حقيقي، فغالبًا ما يطرد الخوف المنطقي المخاوف الوهمية. فلنتخيل مثلًا شخصًا لديه رهاب الصراصير، وحدث أن تم اختطافه من قبل جماعة ما، وبطريقة ما وجد المعني فرصة للهرب من المكان الذي احتُجِزَ فيه، والمكان (الباب مثلاً) الذي يستطيع الفرار منه مليء بالصراصير. فهل تظن أن المعني سيتخلى عن رغبته في الفرار؟ طبعًا لا؛ لأنه

يعلم أن الصراصير لن تقدر على شيء مقارنة بما يمكن أن يفعله به المختطِفون. فالعقل يمنح الأولويات اهتمامًا أكبر في مثل هذه المواقف. والأمر نفسه يعتمده العلاج النفسي بجعل المعنيين يعيشون تجارب اختبارية (كالقيام بعملية جراحية وهمية)، ليتسنى للمعني أن يدرك أن هناك أشياء أهم، هي التي تحتاج للخوف وليس أفكاره الصبيانية!

تتجلى لنا الفوبيا هنا كخوف تعويضي، فالإنسان ولا نود أن نقول الفاشل! يجد في الفوبيا تحقيقًا لنرجسيته وإظهارًا لأهميته الكونية. فكيف نفسر اعتقاد شخص بأن حيوانًا ما سينقض عليه دون الآخرين الذين قد يتواجدون معه في نفس المكان؟ أو أن المصعد سيتعطل فقط إن دخله هو؟ أو أن الناس يراقبونه وينتظرون أدنى حركة سخيفة منه حتى يسخروا منه؟ هذه الأفكار جميعها تكشف عن اعتقاد المعني بأنه شخصية مهمة لدرجة أن القدر يحيك مؤامرة للإيقاع به في مواقف كارثية، كما عبَّر عن ذلك أرسطو بجملة مفيدة: الخوف ألم نابع من توقع الشر. وبما أن المعني يتوقع الشر دون قدرته على أن يعبر عن فكرته هذه بعلانية: أنه الشخصية المهمة المُطاردة من قبل القدر، لإدراكه أن هذا هو الجنون بعينه! فإن الفوبيا قادرة على إخفاء ذلك باعتبار أنها متولدة عن تجربة سيئة عاشها المعني، فإنه يمكن أن تعاد مجددًا، أو حتى إلى ما لا نهاية! وهي في أصولها فكرة الطفل الذي لا يرى أحداثًا للعالم خارجه، فكل شيء يدور حوله وعنه.

والأمر هنا شبيه بالوسواس القهري، غير أن الاختلاف البسيط يكمن في تخلص المعني بالوسواس من خوفه (توقع الشر) لدى قيامه بطقوسه (حركات معينة يكررها لعدة مرات يوميًا).

رغم كل ما ذكرناه، فهذا لا يعطي لأحد الحق بالسخرية من المعني أو التقليل من شأنه وشأن مخاوفه لأنه يعلم ذلك، لكن ما لا يعلمه أو يكبته عن نفسه، هو أن الفوبيا (خصوصًا الاجتماعية) يبرر بها فشله وعجزه عن تحمل مسؤولية القيام

ببعض الأمور، فمخاوفه تحكم سيطرتها عليه! أو أنه مُطارد من قبل قوة شريرة يخفيها القدر.

ونجد قصة رمزية قد توضح لنا ما سبق، وهي قصة باتمان (Batman Begins) عندما تخلص من خوفه من الخفافيش، فصار مسؤولا عن حماية الناس طالما أن لديه القدرة لفعل ذلك. فلو ظلت لديه الفوبيا لما تحول لبطل مسؤول عن القيام بتلك المهمة؛ لأنه سيظل شخصًا عاديًا يرتعب من أن يتصادف مع خفاش بمكان ما، ويبرر أي إخفاق للخفاش الذي يمكن أن يظهر له بأي مكان، أو حتى في بعض الحالات (القصوى) يمتنع عن الخروج من البيت وعن ممارسته للحياة بطبيعية.

وطالما أننا ما زلنا مع باتمان، فمن سيعمل على تخليص هذا البطل من الفوبيا هو مدربه. ليس بوضعه مباشرة أمام الموقف، إنما بإدراك أنه يلزم أولاً أن يُفكك الوهم الذي أحاط بالموضوع في العقل، وهو ما يبدو بوضوح في تلقينه لتلميذه ما مفاده أن: أكثر ما يخيفنا هو الخوف نفسه وأن الخوف الحقيقي هو ما يعيش بداخلنا.

فما يخيف هنا ليس الموضوع، بل الفكرة التي حول الموضوع والتي ضخمته ومنحت له قوة جبارة، لذا فما إن يتم التخلص من الفكرة الخاطئة حول الموضوع، حتى يتم التخلص من الخوف منه. فالمخاوف قوية لأنك أنت من منحها تلك القوة، فهي في الأخير قوتك أنت!

المعرفة العقلانية حول الموضوع هي التي تمكّن الإنسان من التحكم في رد فعله لدى مواجهته للموضوع المذكور، فحينما يغير الإنسان معتقده الوهمي حول موضوع ما باعتقاد منطقي، فإنه خوفه يتلاشى، كما يقول أحد شخصيات القصة المذكورة: «أنت دائمًا تخاف مما تعجز عن فهمه» ليس بالضرورة، بل مما تفهمه بشكل خاطئ أو ما تمنحه هالة خرافية. لهذا يلزم على المعني أن يبحث عن توضيح حول مخاوفه ويطلع على تجارب (والأفضل لو كانت معاينة

مباشرة) من يتعاملون مع نفس الموضوع بواقعية موضوعية. بدل الاعتماد على السينما الخيالية أو برامج المُغفلين، وأحاديث العجزة والمتقاعدين فكريًا ومهنيًا، وكل من يسهمون في استمرار تواجد «الشياطين». في عالم ما زالت تسكنه الشياطين!

***

فعل الخير

فعل الخير للآخرين ليس واجبًا، بل متعة.

زرادشت

لماذا يفعل الناس الخير؟

منذ نشوء النظام الأخلاقي في المجتمعات الإنسانية، والتفريق بين (فعل) الخير والشر مستمر. عملت الأيديولوجيات على الرفع من قيمة الخير أو كل ما يسهم في ضمان استمرار وتوازن العلاقات الاجتماعية وكذلك ما يخدم ويسهم في ازدهار الجانب الديني والسياسي للمجتمع، ومن جهة أخرى وظّفت نفس الخطاب للخفض من قيمة الشر وهو يعاكس ما سبق ذكره، أي ما يؤدّي إلى التفكك والتفسخ الاجتماعي.

ومنه أدرك الإنسان أنه بفعله للخير يتحول لإنسان محبوب ومقبول (طالما أن المجتمع يثني على ذلك)، وكلما ازداد سلوكه هذا، اقترب من التشبه بالشخصيات الأكثر تأثيرًا في المجتمع، سواء القديسين والأنبياء أو حتى الملوك. ولا يتوقف الحب عند أفراد المجتمع فقط بل يتلقاه الشخص حتى من الطبيعة وسائر الكائنات الحية! باعتبار أن الخالق يحب فاعل الخير ويهتم لأمره، وهو ما تشير إليه بعض النصوص الدينية.

لكن قد يجد الإنسان إما بسبب صعوبة تكيفه داخل المجتمع أو بسبب اضطراب نفسي أو نظرًا لمكانته الاجتماعية المتدنية، أن المجتمع لا يُقدّر ما يحاول هذا الشخص أن يقدمه من أفعال خير (حتى لو أن الأمر فقط على مستوى النية والتفكير!)، زيادة على تعرضه لمضايقات أو صعوبات داخل محيطه الاجتماعي. فإن الشخص يجد أن المجتمع لا يستحق فعل الخير، فلا يعقل أن يقوم بإسعاد الآخرين والعمل على رفاهيتهم وهو يعاني بسببهم وينفرد أو يتلقى منهم الشر! وهذه الرؤية نجدها تسكن عقول المكتئبين والمجرمين،

الفرق الوحيد هو أن الفئة الأولى تفضّل الانسحاب، أما الثانية فإنها تعمل على رد الضربة والانتقام حتى يشعر المجتمع بما شعر به الشخص.

لا نختلف عن أن مساعدة الناس يعتبر «فعل خير» في مختلف المجتمعات وباختلاف الديانات (الحاثة على هذا الأمر منذ القدم)، وبذلك فأي سلوك يعيق الآخرين عن تحقيق أهدافهم أو يصعّب عنهم الأمور، يعتبر شرًا. هذا الأمر الأخير وهو إعاقة الآخرين (ماديًا أو معنويًا)، يكشف لنا عن حسد الشخص (بوعي أو بدون) للآخرين الذين يشعر بأنهم سيتفوقون عليه، وقد لا يتعلق الأمر بالسعي للإطاحة بهم فقط، بل حتى رفض مساعدتهم (أو تضليلهم). وهو ما يدل عن خوف الشخص من أن يصبح من يود مساعدتهم «أفضل منه» (فيراهم كمصدر تهديد).

ومنه نقول إن فعل الإنسان للخير يوحي له نفسيًا بأنه أفضل، فكما يقول المثل الشعبي «فاقد الشيء لا يعطيه». وهذا ما يسبب أحيانًا كوارثَ للناس! فبعض البشر «الغير قادرين» على المساعدة وحتى يحققوا لأنفسهم إحساسًا بالأهمية والقداسة (التفوق الديني/الاجتماعي) يحاولون مساعدة الآخرين فيصبحون هم «الإعاقة» بسبب غبائهم أو عجزهم وقلّبهم للأمور!

نأتي للنقطة المهمة والتي تدل على غرابة الفكر الإنساني! وهي (نسبيًا) عدم وجود شخص لم يقم بفعل خير ولم يتعرض للتنكر، فانطلاقًا من تجربة شخصية لم نعثر على شخص لم يعاني من هاته المشكلة، فمن يقومون بفعل الخير ولا يتعرضون للتنكر والإساءة هم نادرون حتى إن الواحد ينسى أنه التقى شخصًا لم يحصل له هذا الأمر (لم يذكره خلال المحادثات). فتجد أغلب الناس (من المعارف وغير المعارف) يشكون من هذا الأمر، فأي شخص يحاول أن يبيّن لك أن نيّته صافية وأنه شخص طيّب ومستقيم (ومتدين ربما) ويساعد الناس لكن الناس لا تستحق، وتجد بحوزته من القصص حول التنكر للإحسان والخير الذي قام به، ما يفوق قصص شهرزاد عددًا. لكن الأمر لا يعدو كونه أكثر من حيلة

ذهنية! فبمثل تلك القصص يحاول الشخص أن يزرع في الآخرين فكرة مفادها أنه إنسان «أفضل» كممثل للخير (فاعل) يعيش في مجتمع سيئ (الآخرون المتنكرون)، وبهذا يحاول أن يترفّع ويظهر أنه شخص يستحق الحب والاهتمام والاحترام. ولو قام هذا الشخص بتحويل ذكرياته الوهمية لمجموعة قصصية تطبع كتاب، أو لمسرحية تُعرض في القاعات، لاستحق فعلًا الاحترام والاهتمام. بدل أن يهرب من تفاهاته بسرد روايات شفهية!

وهذا سببه أن الإنسان لا يقوم بفعل الخير حبًا منه للإنسان أو الإنسانية، إنما حتى يبني له الرب قصرًا في الجنة (أو من أجل الحوريات). أو لأنه يتخلص من نغص الذنب، فكثيرون يقومون بمساعدة الناس لأنهم يجدون أنهم يعيشون في مستوى اقتصادي عالٍ (رفاهية) والبعض يقبع تحت رحمة الفقر (مأساة)، وهو ما حدث لغوتاما بوذا عندما خرج مع خادمه ليتجول في سوق وأحياء المدينة الشعبية، فشاهد الناس وهم يعانون من البؤس ويتصارعون فيما بينهم من أجل لقمة عيش، وهو يعيش في قمة الرفاهية بصفته الأمير. لذا قرر أن يقوم برحلة يكتشف فيها معنى المعاناة ومسبباتها، وقد سببت له التجربة (جولته مع الخادم) صدمة نفسية وإحساسًا بالذنب جعله يحاول أن يتقمص حالة البؤس والفقر، بصيامه واختبار حياة التقشف بأقصى حدودها. وظهرت عبقريته في أنه اكتشف طريقة للتلاعب بالعقل، وهي بأن يطرد الأفكار السلبية من دماغه ويحتفظ بالإيجابية وبذلك يضمن تحقيق نفسية هادئة وهو يعيش ظروفًا صعبة، فتسيطر بذلك الذات على الواقع دون أن تتأثر نفسيًا بما تعكسه الأوضاع الخارجية على النفس. وهو ما اكتشفه بوذا في التأمل (كتنويم ذاتي) للتغلب على الفكر كسبب للمعاناة (التخلص من الرغبات المسببة للصراعات من أجل التملك). وبذلك أصبح بوذا من الشخصيات الأكثر تأثيرًا على مدار التاريخ، فألهم كثيرًا من البشر وتأثرت بفكره كثيرٌ من المعتقدات والأديان وكذلك الفلاسفة والمفكرون، حتى إن أتباعه اعتبروه إنسانًا خالدًا (رغم أنه كان يسخر من هذا الأمر!)، ومنه أيضًا أتى فكر التقشف والزهد والتصوف وما سواه من غرائب الإنسان العقلية!

حاول بوذا أن يتغلب على المعاناة الإنسانية بإيجاد طريقة للعيش في ظل الفقر والحرمان دون أن يؤثر ذلك على نفسية الإنسان، وهي بالسيطرة على الفكر. فإن كان بوذا تخلص من عقدة الذنب (برفضه لأن يستمر في العيش مُرفّهًا والآخرين يعانون كما رأى) فذلك بأن يتماهى مع البؤساء لأقصى حد ويخوض نفس التجربة، دون أن ننفي سعيه لخدمة الإنسانية. فمساعدة الذات قد تسهم في مساعدة الغير بنفس الوقت.. وكمثال سريع، نفترض أن شخصًا قام ببناء جسر خشبي صغير لأن طريقه إلى مكان يتردد عليه باستمرار سيكون أقرب لو أنه سلك من فوق النهر؛ فبالتأكيد سيستفيد الآخرون كذلك إذا كان الطريق من فوق النهر سيكون أقرب مسافة للوصول إلى وجهاتهم.. نعود للمعنيين هنا وهم من يخلصهم فعل الخير من الذنب، غير أنهم لا يتشبهون بالفقراء ليحسوا بما يحسون، بل يقومون بأعمال خيرية لدور رعاية أو مستشفيات أو لجمعيات مدنية (وأغلبهم لصوص!!)، وتجد من معارفهم من يحتاجون بل إن أقل ما يعطونه لـ«أولئك النصابين» كافٍ لسد حاجياتهم. هذا إن لم يتجهوا إلى إفريقيا ليتم التخلص من عقدة الذنب بالصوت والصورة! فأن يعيد الإنسان ترميم معبد سواء كان مسجدًا أو كنيسة (لحمايته من الأمطار)، فعلاً يستحق الاحترام على التبرع بأموال خيالية لبرامج تلفزيونية وحملاتها! على الأقل يعرف الشخص أين ذهب ماله ويرى نسبة الفائدة التي حققها للآخرين (رغم أن هذه الأمور تظل اختيارات شخصية تتعلق بغباء المَعني لا شأن لأحد!).

وأغلب من يحسون بالذنب من جهة الفقراء، هم من يرون أن حياة الرفاهية التي يعيشونها، لم يتعبوا في تحقيقها أو توفرت لهم بسهولة!

بالعودة لأسباب فعل الخير، نأتي لتلك النوعية التي لا تفعل الخير إلا لاعتقادها أنه يُجنّبها مساوئ القدر، ففعل الخير يضمن عدم وقوع أمور سيئة في المستقبل! وهو يعتبر اعتقادًا وسواسيًا إذا ظن الإنسان أنه بعدم فعله للخير فإن القدر سينتقم منه. بل حتى فرويد يذهب لحد اعتبار أن القيام بالطقوس الدينية

خوفًا من حدوث عقاب (أو تجنبًا له)، يعتبر وسواسًا قهريًا جماعيًا!

ما علينا.. ما نشير إليه هنا ليس غريبًا أو نادرًا، فكثيرة هي الخطابات الدينية التي تؤكد هذه الأمر، بل إن منها من تذهب إلى أن فعل الخير (الصدقة) تزيد من حجم الثروة ومن سنوات الحياة! ونتذكر قصة رواها أحدهم في برنامج تلفزيوني، وهي أن شخصًا عجز الأطباء عن علاجه من السرطان فشُفي لأنه قام بفعل خير لشخص، فاستغرب الأطباء!! وكنا نظن أن هذه «اللخابيط» التي كان يحكيها أحيانًا معلمو الابتدائية الغريبو الأطوار، لم تعد موجودة! لكن في برنامج تلفزيوني!! فعجبًا للمخرج والمنتج وعجبًا لطاقم التصوير الذي يستمع له ويستمر بتصويره!

لو كان الإنسان يقوم بفعل الخير للخير، أي من أجل الإنسانية، من أجل الإسهام في عالم أفضل يستمتع هو كذلك بالعيش فيه، من أجل مساعدة الإنسان كإنسان دون انتظار أي رد منه أو انتظار جوائز من القدر، كتحقيق متعة (بتعبير زرادشت) بما يعكسه كمردود على نفسيته، فإنه سيتخلص من سيناريو التنكر ومطاردة الناس والترصد لسلوكاتهم اتجاهه! فمن العجائب الاجتماعية ظن الشخص أنه صار أميرًا على الآخرين بحكم أنه يمنن عليهم (ويلزم أن يطيعوه ويعترفوا له بذلك للأبد!!) ولا يلزمهم أن يرفضوا له طلبًا مهما بدا غريبًا! حتى يحس الناس الذين تلقوا المساعدة كأنهم صاروا أسرى.

«فمباركون من يعطون وينسون ومباركون من يأخذون ويتذكرون» بتعبير برنارد ملزر.

لذا، فإذا كنت ستفعل الخير وتظل تترقب الناس حتى تكشفهم «هل سيتنكّرون»؟ «هل سيتذكّرون»؟ «هل سيردّون الجميل»؟ إلخ.. فالأفضل ألا تفعله!! فالخير كسلوك واقعي يجب أن ينفصل عن الأشخاص، الخير بما يترتب عنه من إحساسات نفسية. لذلك فحتى الإنسان الذي يتلقّى الخير يجب أنه يعي أن هو من يسهم في الوصول وتحقيق ذلك الشعور للآخر، والعلاقات الإنسانية

علاقات مصالح، أحدهم هنا يمنح الآخر مساعدة مادية والآخر يمنحه بالمقابل مساعدة معنوية، كعلاقة عطاء وأخذ. وكما يقول جبران خليل: «أنت رحوم إذا أعطيت، ولكن لا تنسَ وأنت تعطي أن تدير وجهك عمّن تعطيه لكي لا ترى حياءه عاريًا أمام عينيك» ـ لكن على ماذا يستحي؟! فكما يشكر من يأخذ العاطي على عطائه، يلزم على العاطي أن يشكر من أخذ منه (لأنه يخلصه بذلك من بعض عقده! ويُشعره بأنه شخص أفضل كتأكيد).

يقال بأن الخير له علاقة بالدين! لكن يجب ألا ننسى أن الدين قد يشير بفعل الخير للمنتمين ومن يحملون نفس الاعتقاد فقط، دون أن يهتم بالمختلفين والباقين. يمكن أن يحث الدين كخطاب على الخير الإنساني، غير أن الأتباع يتصرفون انطلاقًا من الدين وبحدود دائرته، رغم أن فعل الخير عند بعض البشر لا يعدو كونه سلوكيات عادية لا يمكن أن نحتسبها مساعدة حقًا، فيضخمونها كأنهم منحوا مجمّعات سكنية لمعارفهم بالمجان! حتى يجدوا من يتعاطف معهم عندما يكشفون عن شعورهم بالاضطهاد والتنكر من قبل الآخرين!!

ومما سبق نقول إن فاعل الخير هوَ مَن يقوم بتقديم مساعدة دون انتظار رد أو حتى تقدير، مَن يساعد الإنسان مهما اختلف عنه عقائديًا وعرقيًا كطبيب يهتم بعلاج «الإنسان». من استطاع أن يفصل الخير عمن تلقوه منه، حتى لا يتشوه مفهوم الخير.

مباركون مَن يقومون بفعل الخير لأجل (إحساس) الخير، سواء كانوا متدينين أو ملحدين، مَن يقدمونه كخدمة للإنسانية، مَن يقومون به كما يقول طوماس بين: «فعل الخير هو ديني». فعل باختيار وليس كواجب، حتى لتجد بعض الأغنياء يختبئون ويتجنبون لقاء معارفهم الذين لا يتوقفون عن الطلب والسؤال، حتى لا يبدو الواحد منهم كأم ترفض أن تُرضع! فبعض الناس قد يرونك إن كنت ثريًا، كثدي ضخم يلزمه إرضاع الناس!! نظرًا لأنهم لم يكبروا عن الرضاعة بعد.

الفشل في الانتحار

لا يمكن أن يكون الموت صعبًا فحتى الآن لم يفشل فيه أحد..

نورمان مايلر

عند السماع بأن فلانًا انتحر فهذا معناه، أنه وضع حدًا لحياته بإرادته وبيده (بنفسه). حتى لو ساعده شخص ما أو هو من قام له بالعملية، فإن إرادة الانتحار تتعلق بالمنتحر وليس بالمساعد (مهما بلغ دوره في إنجاح العملية). وغالبًا ما يشار للانتحار بالموت الذي يكون الميت هو مَن تسبب بموته، غير أن الإشارة تظل كذلك بالنسبة للمعني إذا فشل في إنهاء حياته (كأن تم إنقاذه). ومنه نقول إن الانتحار يعني إنهاء الشخص لحياته (بإرادته) بنجاح أو بفشل (كمحاولة)، وهذا الأخير يسمى بالفشل في الانتحار وهو ما يهمنا هنا. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا ينجح البعض أو أن النجاح يكون حليفهم من أول محاولة؟ والبعض الآخر يفشل في ذلك رغم تكراره للعديد من المحاولات؟

الانتحار بالنسبة لألفرد أدلر هو «أكثر الصور تطرفًا في التعبير عن التراجع أمام صعوبات الحياة، عندما يستسلم الفرد أمام تلك الصعوبات، ويعبّر عن اقتناعه بأنه لا يوجد ما يمكن عمله لتحسين الوضع من حوله». لذا فإن عملية إنهاء حياته يمكن فهمها إذا فهمنا «أن الانتحار ما هو إلا وسيلة للتأنيب والانتقام»! ولكن كيف؟!

يجيب أدلر بأن «ضحايا الانتحار دائمًا ما يضعون اللوم على الآخرين، فهم يرون أن ثمة شخصًا آخر مسؤولاً عن موتهم، فهم كمن يقول: أنا كنت معرضًا للهجوم باستمرار، ورغم أنني أكثر الأشخاص حساسية في العالم فإنه قد تمت معاملتي بعنف وقسوة لا مثيل لها»(50).

ومن المعلوم أن الانتحار هو أبلغ صور العنف (القتل) الذي يوجهه الشخص نحو ذاته. ومن المعلوم أيضًا أن نوع سلوك العنف ودرجته تكشف عن مقدار

الإحباط وشدّته. لذلك، فإن المنتحر هو شخص قد بلغ درجة كبيرة من الإحباط، وبدل تفريغ المركب العدواني الناتج عن ذلك الإحباط نحو مسبب خارجي مباشرة أو نحو رمز معبر عنه عند العجز عن الوصول للمسبب الحقيقي (وسنتوقف لتوضيح هذه النقطة نظرًا لأهميتها)، فإنه يفرغ عدوانه على نفسه!

مثلًا عندما يعجز شخص ما عن معاقبة مسؤول بمؤسسة معينة، كأن يتركه (هذا الأخير) في غرفة الانتظار لمدة طويلة ثم بعدها يرسل سكرتيرته لتخبره بأن الموعد تأجل! إن هذا الشخص الذي تعرض في هذا الموقف للإحباط سيود لو يعاقب المسؤول (كطرده أو توقيفه أو على الأقل إعطائه درسًا) ونظرًا لأنه لا يستطيع، زيادة على الغضب الذي سيتملكه ولن يجد له طريقة لتفريغه، فإنه ما أن يمر بالبقال وإذا حصل وتأخر هذا الأخير في توفير خدمة مطلوبة، فإن البقال سيسمع المحاضرة التي كانت مخصصة للمسؤول! رغم أن البقال قد يكون له عذر إما لكثرة الزبائن أو صعوبة توفير الخدمة بسرعة قصوى (أو بالتي طلبها المعني). فإن المُحبَط قد يستغل الموقف هنا للتفريغ.

ونجد مثالًا أكثر وضوحًا بالنسبة لبعض الرجال الذين يتعرضون لمواقف تكشف عن انخفاض مستواهم سواء المعرفي أو الاقتصادي أمام الجنس الآخر. فلتفريغ غضبهم الناتج عن إحساسهم بالدونية (والذي لم يتحقق كعملية انتقام من المسبب الحقيقي نظرًا لعدم استطاعتهم في بعض الحالات)، فإننا نجدهم يخلقون أتفه الأسباب للشجار مع صديقاتهم أو أخواتهم ليتم تفريغ العدوان في مسبب الإحباط (الرمزي) وهي الأنثى (حتى الشخصيات التي لا دخل لها في التسبب بالإحباط أو النقص). وبالقليل من الملاحظة يسهل كشف هذا الأمر في الكثير من الرجال، رجال السيمبسون نعني!!

لكن الأمر يختلف هنا بالنسبة للمنتحر؛ لأن السلوك موجه نحو ذاته. ما يعني أنه إما لم يجد مَن يفرّغ فيه مركبه العدواني (أو لم يستطع)، فانقلب على نفسه للانتقام من ضعفها (والأمر شبيه بالتفريغ الفردي في الجنس «الاستمناء» عند

عدم إيجاد شريك). أو أنه اعتبر أنه لا وجود لمسبب (للإحباط) سواه. وكما يقول سوفوكليس «فأشد الأسى أن ندرك أننا السبب الوحيد في كل المحن التي تواجهنا»، ليستحق بذلك (المعني) الانتقام بنفسه من نفسه. وهذا ما أشار له سلامة موسى في كتاب له عن العقل الباطن، بأن عجز الإنسان عن الارتقاء اجتماعيًا قد يدفعه لوضع حد لحياته، باعتبار أن هذا السلوك هو ارتقاء كذلك عن الوضع الغير مرغوب. فالمعني يفضل الانسحاب على وقف الارتقاء (ماديًا غالبًا)، لذا فإنه من الممكن أن عدم رغبته بواقعه قد تدفعه لتخليص نفسه منه.

لكن قبل أن يُقدم المعني على الانتحار، فإنه يعلم مسبقًا أن معارفه (الأهل والأقارب والأصدقاء) سينصدمون إثر سماعهم لما أقدم عليه، دون ذكر الحزن الذي سيترتب جراء ذلك. وهنا نجد أننا توصلنا لنقطة ستوضح لنا كل ما سبق، وهي أن إقدام المعني على وضع حد لحياته ليس الغرض منه الانتقام من نفسه (كما أشرنا)، بل الانتقام من الآخرين (سبب الإحباط)، كما أشار آدلر (بالتأنيب). ولكن كيف والعدوان لا يطال إلا شخصه؟!

يعلم المعني أن انتحاره سيسبب ألمًا لمعارفه، لهذا فإنه بالعملية: يقوم بمعاقبتم نظرًا لأنهم لم يهتموا به ولم يساعدوه ولم يخلّصوه مما كان يعاني منه (لم يحسوا به حسب تفكيره)، وبالتالي فهو يحرمهم منه بأن يأتي يوم ولا يجدونه! فيتألمون لغيابه ويحزنون على تضييعهم إياه، ليدركوا أنهم عجزوا عن الاحتفاظ به وخسروه للأبد دون قدرة على استرجاعه؛ لأنهم تأخروا في الوصول نظرًا لانشغالهم بأمور أخرى غيره. فالذنب ذنبهم وبهذا يستحقون العقاب بفقدانهم الكائن النادر الذي لم يقدروا قيمته.

لكن ما يغيب عن المعني، أن الآخرين سرعان ما ينسونه بعد ساعتين من الحادثة باعتبار أن لكل شخص أمورًا أهم من المعني إن لم نُشير لأهمية كل شخص بالنسبة لنفسه. لذا فمن سيحزن عليه نسبيًا هم والداه أو إخوته في بعض الحالات، وهذا نظرًا لأن الأهل يرتبطون مرَضيًا بالأبناء، ما يعني أن فشل

الابن فشل للأهل. فهنا هم يحزنون على أنفسهم (فشلهم) أكثر من حزنهم عليه! بل حتى في حالات الحزن العادية على الوفاة، قد يستغل البعض (من الأهل والمعارف) الوضع للتعبير لاشعوريا عن حزن يتعلق بهم (كفرصة للتفريغ). فالبشر يخفون أنانيتهم المخيفة بطرق يصعب كشفها!

ومنه فالمُقدم على الانتحار يجتهد لتوفير الجو الذي قد تنعدم فيه فرص الفشل، فالمصيبة الكبرى بالنسبة له ليس الموت، بل الفشل في الموت كذلك! وهنا نجد الفاشلين في الانتحار عكس هذه العينة، فهم كما قال برتراند راسل عن أن التعساء مثلهم مثل من لا ينامون جيدًا، دائمًا ما يتفاخرون بذلك. فنفس الأمر ينطبق عن الفاشلين انتحاريًا، كما بتعبير أحد معارفنا المقرّبين: «تخيّل أنني فشلت في كل شيء، بما في ذلك الانتحار!».. «يا فرحت أمك بيـك»!

فالمنتحر الفاشل يهدف بفعله لفت انتباه من حوله؛ لأنه سيستفيد من الاهتمام والحرص الذي سيبديه الآخرون في سبيل مساعدته على تخطي أزماته وكذلك العمل على عدم تكراره للعملية عن طريق حراسته والسهر على توفير ما يلزمه أو ما يبتغيه ويسعده (وعدم إغضابه أو إزعاجه زيادة عن عدم رفض طلباته). لهذا قد نجد المعني يعاود كرّة أخرى (فاشلة كذلك) ما إن يرجع الواقع كما كان (ما عادوا يهتمون به): الأمر الذي يُفسَّر بأن حراسته قد أُهملت، وإثر ذلك تمكن من تكرار محاولته، لكن السبب الذي يخفى هو أنه يبتغي بذلك استعادة الاهتمام الذي بدأ يقل! فالفاشل انتحاريًا هنا مثله مثل طفل يرغب من الجميع أن يمنحوه الاهتمام ويقوموا بواجباته بداله، بل ويحققوا له الحياة السعيدة. فليس هو المسؤول عنها!

Telegram:@mbooks90

لا نحدد هنا بأن المنتحرين (بتخطيط وتدقيق مسبق) لا يفشلون، لكن في فشلهم قد لا يشيرون للعملية بأنها انتحار، بل بأنها خطأ غير مقصود أو سهو وما سواه مما يمكن اعتباره حادثة عرضية. ليحفظوا كبرياءهم إلى أن يتم تكرار العملية بدقة أكبر، فغالبًا ما يتكتمون على الأمر ويخفونه حتى ينجح (فالأمر

شبيه بعملية انتقام كما أشرنا).

أما بالنسبة للفاشلين، فالعملية تمر غالبًا بطريقة مضمونة الفشل، حتى يجد الأهل فرصة للتدخل وإنقاذ ما يلزم إنقاذه، بل قد يُستعمل الانتحار كتهديد إن لزم الأمر (كتهديد الطفل للأهل بإيذاء نفسه إن لم يحققوا له بعض رغباته). وقد يعترض البعض باعتبار أن هناك من ينجحون في الانتحار بعد عدة محاولات سابقة (فاشلة). ونحن لا ننفي ذلك؛ لأن المعني قد يقدم على إنجاح العملية إذا وجد أن المحاولات الفاشلة لم يعد لها أي تأثير أو ربما يكون السبب شيئًا آخر (يتعلق بالإحباط غالبًا)، لكن يجب ألا ننسى أن العديد كذلك يتراجعون عن الفكرة برمتها بعد عدة محاولات. وهذا راجع لنفسية كل شخص والظروف المصاحبة والمتغيرة والتي تساعد كذلك إما على التقدم لتحقيق العملية بنجاح أو التراجع عنها.

لهذا فما نود تبيانه هو أن الانتحار يمكن استعماله كحيلة ذهنية لخداع الذات والآخرين، عن قصد شعوري أو لا شعوري. بغرض ترك (المعني) مسؤولية رسم حياته وإسعاد نفسه، للآخرين يقومون بها عنه!

وهنا نجد الانتحار يخدم كذلك الانتقام، غير أن الفشل يختلف عن النجاح بالاستفادة المقصودة من النتائج المترتبة، وليس فقط إيذاء الآخرين وتحسيسهم بالفشل في تقدير المعني والحفاظ عليه دون تصحيح للخطأ! بهذا يمكن أن نقول إن سبب اختلاف النجاح عن الفشل هو نسبة الإحباط وشدته التي قد تدفع بالمعني لفقدان الأمل بالآخرين وفقدان الاهتمام بكل محاولة تصحيحية سيبدونها بعد إقدامه على العملية.

عند هيراقليطس «شخصية المرء هي مصيره» أي أن شخصيته هي ما ترسم قدره وقدره هو نتاج شخصيته. ما يفيد أن «المرء مسؤول مسؤولية كاملة عن طبيعته واختياراته» حسب وجهة نظر جون بول سارتر. لذلك فإن الانتحار سواء تحقق أو فشل، فإنه يعود على المعني الذي يتحمل مسؤولية قراراته وسلوكياته

والنتائج (السلبية) المترتبة عنها. لا تقع المسؤولية على أحد (حتى لو ساعده على ذلك!)، وحتى بالنسبة لبعض الحالات التي قد نقبل بأن هناك من له يد في تشكيل دافع الإقدام على الانتحار لدى الشخص (كعامل مساهم)، فإن نسبة المساهمة هاته تظل ضئيلة ولا تأثير لها أمام نسبة المسؤولية التي تقع على عاتق المعني.

وهذا ما نلمسه في المنظور الذي وضعه أدلر حول الحياة ومسؤولية الإنسان، عند قوله: «إنه من الواجب عليّ تشكيل حياتي بنفسي، فإن هذا هو واجبي، وأنا قادر على القيام بهذا الواجب على أكمل وجه ودون مساعدة، فأنا الذي أسيطر على أفعالي وأقيّمها. وإذا ما احتجت إلى تغيير شيء قديم أو بناء شيء جديد فإنني أنا الوحيد القادر على القيام بهذه الأعمال». ويختم أدلر حديثه عن هذا المنظور بقوله إنه «لو تم النظر إلى الحياة بهذه الطريقة، أي على أنها تعاون بين أفراد مستقلين بذواتهم عن الآخرين. فإن الحضارة الإنسانية ستتطور ولن يكون لتطورها حدود»(51). التطور اللامحدود فيه شك هنا!! مع الانتباه إلى أن أدلر ابتدأ التعبير بـ«لو».. و«لو» حرف للتمني ليس إلا!

أما عن الفكرة القائلة بأن الشخص قادر على قتل نفسه عن طريق عقله (أفكار)، وهو ما حاولت أن تبيّنه مقالة غبية عن تجربة أغبى قام بها بورهيف (ربما يكون طبيبًا أو مغنيًا أو كسّال حمام شعبي!): وبالنسبة للمهتمين ممن لم يطلعوا على المقال (سابقًا) يكفي أن يضعوا اسم «بورهيف» بمحرك البحث «غوغل» ليتمكنوا من قراءة الأكذوبة (وهناك أيضًا قصة رجل مات متجمدًا بالبرد عندما علق بغرفة تبريد معطلة طوال الليل!). بل حتى فرويد قد صدق الفكرة بالمثال الذي وضعه في كتاب الطوطم والطابو عن الرجل (البدائي) الذي مات بعد يومين من تصديقه لتعويذة، ولا ضير في ذلك؛ نظرًا لأن فرويد كان على استعداد لتصديق أي شيء قد يدعم نظرياته المرفوضة آنذاك، حتى لو تعلق الأمر بكشف عقدة إلكترا لدى جنيات شكسبير!

لكن إذا كنت تصدق مثل هذه الأمور، فالأفضل لك أن تنتحر! ويستحسن ألا تفشل!!

لأن الأفكار لا تمتلك أي قوة إذا لم تتحول إلى سلوك، فالسلوك هو ما يؤثر في الواقع كحركة مادية.. فقد تؤلم شخصًا إذا صفعته، لكن جرب أن تحسسه بألمها انطلاقًا من تفكيرك وستجد نفسك في مصحة عقلية بعد مدة!. هذه هي نتائج قوة التفكير وتصديق العقل الباطن الذي يحتوي على حلول لكل شيء، بل يكفي أن ترغب في شيء حتى يحضره لك أو يتكفل بتحقيقه، فالكون كله في خدمتك (كما في خدمة ضفدعة أو سنبلة!!!).. إنها قوة الطاقة الكامنة التي لا يعرف عنها المرء كثيرًا، قوة الشفاء، قوة التأثير في الآخرين والكون، قوة الرغبة في التبوّل!!

يقول راينر ماريا ريلكه في رسائل(ه) لشاعر شاب:

«إذا كانت حياتك اليومية تبدو فقيرة، فلا تلُمها، بل وجه اللوم لنفسك؛ أخبرها أنك لست شاعريًا كفاية حتى تتمكن من استدعاء ثروات الحياة، فبالنسبة للخالق ليس هناك فقر ولا وجود لمختلف أماكن الفقر..

لا شيء هنا ينبغي أن يخيفنا أو يعذبنا، فنحن في الحياة مُثّلنا في أكثر العناصر ملاءمة لوجودنا، فضلاً عن أن آلاف السنين من التكيف، جعلتنا نشبه هذه الحياة، إلى حد أننا إذا بقينا ساكنين بالكاد نميز أنفسنا عن كل ما يحيط بنا بفضل نوع من التماهي السعيد. ولسنا محقين في أن نكون حذرين من عالمنا؛ لأنه لا يناصبنا العداء وإذا كانت فيه مخاوف، فهي مخاوفنا نحن، أو فيه مغاور، فتلك المغاور لنا. وإذا كانت في هذه المغاور مخاوف، فعلينا أن نحاول حبها. ويكفي أن ننظم حياتنا وفق المبدأ الذي يدعونا إلى التمسك بالأصعب حتى يستحيل ما يبدو لنا اليوم شديد الغرابة، أكثر الأمور ألفة وأوفاها.

كيف لنا أن ننسى الأساطير القديمة التي كانت في بدء كل الشعوب: أساطير

التنينات التي تنقلب، في اللحظة القسوى أميرات؟ فربما تكون كل التنينات في حياتنا أميرات جميلات ومقدامات، تنتظر رؤيتنا يومًا ما ربما يكون كل مرعب يحتاج مساعدة، ويريد منا أن نساعده..

(و) الكسل ليس وحده القادر على جعل العلاقات البشرية تتكرر رتيبة، لا تتجدد، وإنما هنالك أيضًا الخجل أمام كل تجربة جديدة وغير منظورة، نشعر بأننا دون مستواها. وحده، من هو مستعد لكل شيء ولا يرفض أمرًا، حتى ما كان غامضًا: سيعيش العلاقة مع شخص آخر مثل شيء حي يستنفد تجربته الخاصة..

وإذا مثّلنا هذا الوجود بغرفة كبيرة نسبيًا، فإن معظم الناس لا يتعلمون سوى معرفة زاوية من الغرفة أو مكان ما من النافذة، أو جزء (صغير من الأرضية)، يمشون عليه ويجيئون، وهكذا، فهم يجدون نوعًا من الأمان، ومع ذلك، فكم هو إنساني هذا اللاأمان المحفوف بالمخاطر، والذي يدفع السجناء في حكايات إدغار ألان بو إلى تلبس أشكال زنزاناتهم المعتمة والمرعبة، حتى لا يكونوا غرباء عن مخاوف إقامتهم. ولكننا لسنا سجناء».. ما لم نقم بسجن أنفسنا!

***

دراسة الحزن

من أين جاء الحزن يا صديقتي؟ وكيف جاء؟

يحمل لي في يده.. زنابقَ رائعة الشحوب

يحمل لي.. حقائب الدموع والبكاء

نزار قباني

الإنسان أحيانًا سعيد وأحيانًا تعيس، هي «سُنّة الحياة» أن يعرف البشر أوقات حزن وأوقات فرح كقدرهم في الحياة. و«ضرسة الحياة» هي أن هذا محض تخريف بشري! فتشبيه حالات الإنسان النفسية بالطقس وما يعرفه من انقلابات وتغيرات في الفصول وتعاقب الليل والنهار (باعتبارها أشياء خارجة عن إرادة الإنسان)، يعتبر تفسيرًا (أو تشبيهًا) سخيفًا.. جد سخيف!

من بسائط الفيزياء المعروفة، أن البرودة هي غياب الحرارة، وأن الظلام هو غياب الضوء. لذا فحينما يبرد الجو فهذا معناه غياب الحرارة (أو انخفاضها بتعبير أدق)، وعندما يظلم فذلك بسبب غياب الضوء، فالحرارة والضوء هما اللذان تتم دراستهما وليس البرودة والظلام لأنهما مسميات لحالة غيابهما، فقط لا غير. كذلك فالحرارة والضوء هما اللذان يحتاجان للتوليد أما الظلام والبرودة فوجودهما شبه مطلق ولا حاجة لهما للتوليد، فللحفاظ على حرارة جسم حي يلزم توفير أكل وضمان استمرار حركة أعضاء الجسم (الداخلية والخارجية) وحتى أشعة شمس إن تطلب الأمر، أما لتبريدها فيكفي تركها ليتم الأمر تلقائيًا. وللاحتفاظ على الضوء (مثلاً) في مغارة أو كهف، يلزم توفير نار أو مصباح أو أي مولد كهربائي، أما لإظلامه فهو مظلم أصلاً لا يحتاج ظلامه للسهر وبدل الجهد مثل عملية إنارته. والسؤال الذي سينطرح هنا هو: لِمَ كل هذا الشطح الفيزيائي الغريب؟ والذي يبدو أنه لا يمت للموضوع بصلة!

ما نود قوله للإجابة عن السؤال، هو أن التفسير توطئة لإظهار أن السعادة والحزن بالمفهوم الاجتماعي ينطبق عليهما نفس الرؤية الفيزيائية ونفس الشرح المبسط. كيف؟

اجتماعيًا يُعرف أن الحزين غير سعيد، والسعيد غير حزين، فالحزن هو غياب السعادة وهذه الأخيرة هي «التغلب» على الحزن. وحتى نوضح لماذا اخترنا «التغلب» بدل غياب، فمن الملاحظ أن الناس تسعى لتحقيق السعادة أكثر من سعيها لأن تكون حزينة، بل إنها تسعى للسعادة كهروب من الوقوع في الحزن، هذا الأخير الذي لا يحتاج لتوليد أو جهد لتحقيقه (كحالة نفسية) فيكفي أن تكون غير سعيد حتى تجد نفسك حزينًا. رغم أنه لا يمكن اعتبار الحزن قاعدة مثل البرودة أو الظلام، فكلاهما لا السعادة ولا الحزن، لا يمكن أن نفهمهما إلا كمكتسبات اجتماعية نتيجة الاحتكاك الإنساني وما يحدثه من تنافس ومقارنات: في ظل الإشباع المعنوي والمادي (متحقق أو غير متحقق) داخل المجتمع. فمن هنا يتحدد المفهومان عند الأغلبية، انطلاقًا من الآخرين يصف الشخص نفسه، من المقارنة، من محاولة التشبه، فبما أن الموقف له مردود على نفسية الإنسان (كاستجابة)، فالتشبه بالسعداء قد يجعلك سعيدًا! فكثيرون يبنون سعادتهم (أو يفهمونها هكذا) أي على أن يتوفروا على ما يجعل الآخرين سعداء، رغم أن الآخرين قد نجدهم «يبدون» سعداء، وليسوا فعلاً سعداء.. فالمظهر يخدع مَن يفتقر للتجربة.

لهذا قلنا إن الناس تحاول التغلب على الحزن؛ لأنه كالبرودة والظلام، ولإغلاق ثغرة هنا باعتبار أنه يمكن أن يكون الإنسان غير سعيد وفي نفس الوقت غير تعيس، كإحساس د.هاوس: «لست سعيدًا، لكني بخير!». لنعتبر أنه إحساس خالٍ من المعنى، فما يجب ألا نغفل عنه هو أن أي إحساس أو موقف أو حركة يعتادها الإنسان قد تتحول لروتين ويتلاشى طعمها، وحينما يقع الشخص في الروتين والملل فإنه سيقترب من اليأس؛ لأنه صار مسجونًا في واقع لا يتغير،

فيكره بذلك ذاته المسجونة. والحزن هنا يفسر نفسه كعجز، عجز الإنسان عن إحداث التغيير والتغلب على الواقع (خلق سعادة بتعبير آخر). بل الحزن بجميع أشكاله قد نجده تعبيرًا عن عجز الإنسان، فمن يحزن على وطنه يعبّر عن عجزه في إحداث تغيير، ومن يحزن عن ميت هو يعبر كذلك عن عجزه عن تغيير الواقع، ومن يحزن عن حاله «فحزنه من عجزه» أو تعبير له. فلو كان لهؤلاء قدرة لإحداث فرق، هل كانوا ليحزنوا؟ طبعًا لا؛ لأن إحداث التغيير هنا يعبر عن القوة وعن المسؤولية وعن قدرة الإنسان على التغلب على الوقع والسيطرة عليه، لهذا نلاحظ أن الإنسان يعلن فرحته وسعادته ويسعى ليُشرِك الآخرين في ذلك، كإعلان عن تغلبه على الواقع (تغلبه عن عجزه)، كالناجح في الامتحان الذي ما إن تنكشف النتيجة، حتى تراه تلقائيًا يعانق من حوله أو يرفع يده (كما يفعل الرياضون عند إحراز أهداف) للإشارة لذاته ولفت انتباه الآخرين إلى أنه أحرز تفوقًا. عكس مَن يفشل، تجده يحني رأسه وينسحب، إن لم يغب عن الأنظار لأيام!

من ذلك نستنتج أن الفرحة إحساس اجتماعي يتشاركه الإنسان مع الآخرين كإعلان عن انتصاره على معوّقات الحياة. عكس الحزن، ينعزل وينفرد كيلا يراه أحد في موقف الانهزام والضعف.

وقد نجد أن الحزن مرادف للفقر؛ لأنهما من منظور اجتماعي لا يحتاجان بدل الجهد مثل ما يحتاجها الغنى والسعادة، اللذان يحتاجان جهدا لتوليدهما والحفاظ على استمراريتهما مثلهما مثل الحرارة والضوء. لهذا فالسعادة صناعة.

الإشكال المطروح هو أن الأغلبية، بحكم أنها لم تتربَ أو تتعود على صناعة سعادتها، فإنها تجلس وتنتظر أن ينقلب حزنها لسعادة تلقائيًا مثلما ينقلب الليل إلى نهار. وحتى عندما تكون سعيدة فإنها تتوقع أن ينقلب الوضع حزنًا (تلقائيًا كذلك) كما ينقلب الخريف إلى شتاء.

كما كان «البابا» و«الماما» و«الدادا» يتكلفون بإخراجنا من حزننا وإسعادنا

(بالهدايا مثلاً)، نكبر (بنفس العقلية) منتظرين من «بابا» أو «دادا» (وهمية) تأتي من مكان ما وتغير واقعنا، وما يحتاج التغيير هو تفكيرنا، تفكير العجز!

السعادة والحزن مفهومان نسبيان، فشخص يسعده شيء ما قد يبدو تافهًا للآخر، وشخص يحزن لأمر ما قد يبدو أنه لا يستحق بالنسبة لشخص آخر. والسعادة ليست مرتبطة بثروة ضخمة أو تحقيق أحلام خيالية، بل (أحيانًا) بأشياء جد بسيطة (فكثيرٌ من الناس يخلقون سعادة بمجرد رؤيتهم لجماعة من الحمقى تطارد كرة لوضعها بين عارضتين!)، وكذلك قد يحزن الإنسان على أقل شيء (ضَيَّع حلقة من مسلسل مثلاً!). بل قد نجد أن أغلب الأحزان لا تستحق، فقط لو فكر فيها الإنسان بعقلانية قليلاً! لكن الناس لا تريد أن تفكر، بل تريد مَن يتدخل ويخلّصها ويحل مشكلاتها (وهذا الأمر لم يعد يحدث حتى في الأفلام!!). والسبب قد يكون أن «معظم الناس يخافون من المسؤولية» كما يشير إلى ذلك سيغموند فرويد.

أتذكر في حديث مع أحد الأصدقاء الذي كان يعاني من أزمات نفسية، كان قد أخبرني أنه استنتج سبب حزنه وعدم سعادته، وكان السبب (في نظره) هو «بعده عن الدين». لكن بمجرد تلميح إلى أن ربط الدين بالسعادة يعني أن جميع المتدينين سعداء! وهذا ما لا نراه في الواقع (بجميع أنواع المتدينين)، بل إن هناك ملحدين ويعيشون سعداء!: تراجع عن الفكرة، فعاد واستنتج أن الأمر يعود لأسلوب حياة كل شخص وطريقة تفسيره، فهناك متدينون سعداء وآخرون تعساء كما أن هناك غير متدينين سعداء ومنهم كذلك تعساء.

زيادة على أن هناك مَن يسعد عندما يلجأ للدين، وهناك من يتخلص من أحزانه عندما يتركه. رؤية الشخص واختياراته هي التي تلعب دورًا.

يقول بوبي نايت (مدرب كرة سلة أمريكي) إن: «إرادة النجاح مهمة، لكن الأهم منها إرادة التحضير للنجاح»، وكذلك نقول إن «إرادة السعادة مهمة، لكن الأهم منها إرادة التحضير للسعادة».

وأنت تُحضّر لصناعة السعادة، حاذر أن تجتذبك قوة الحزن المُعدية.

تلك القوة التي تفاقمت كالوباء، كالثقافة، صارت صناعة.

بكثرة الحشود التي تسهم في تحضيرها.

بسهولة تحضيرها.

وإذا كنت حزينًا، فحزنك لن يغيّر من الأمر شيئا، فـ«احمل بعيدًا هذه الخطى الجريحة.. فليس في المدينة متسع لمثل هذا الألم.. ملعونة النبتة التي لا تُبهج العيون.. لا شيء مطلقًا أجمل من بسمة، حتى على وجهٍ مشوَّه؛ ألا يهمك أن تكون جميلًا؟»(52).

هي الحياة يعيشها الإنسان، يعيشها (يصنعها) بشكل جيد أو سيئ.

* * *

وجع الثقافة

العقل المفتوح يعني قلبًا مفتوحًا

لاوتسو

رغم أن المجتمعات العربية بها الكثير من الغرائب والعجائب، إلا أن غريبي الأطوار الذين يخصهم الحديث (هنا) من المؤسف تجاهلهم أو التغاضي عنهم.. وكثيرًا ما يصيح بعض الدّيكة بأنه لا يجب نقد الثقافة العربية وترك ثقافات أخرى! لا يجب نقد الأديان كالإسلام أو المسيحية وترك البوذية دون نقد! ولتجاوز مثل هذه السخافات نجيب بأن نقد مثقف مصري للمجتمع المصري أو السوري أو السعودي حتى، يُعتَبر أمرًا مفيدًا - لماذا؟! لأن الثقافات متقاربة وتؤثر في بعضها البعض (رغم الحدود) ما يعني أن تغيرات في مجتمع ما قد تؤثر في المجتمعات الأخرى القريبة. وهو ما أتبثته الثورات العربية المتلاحقة، ابتداءً من شرارة بتونس لتصل تلك الشرارة حتى شارع وول ستريت بنيويورك، وهو ما عرفته سابقًا القارة الأوروبية بنهضة إيطاليا ابتداءً من جحيم دانتي لترتفع موجة التنوير التي ستتكسر على شواطئ العالم معلنةً بداية النقد الماركسي الذي سيقلب أغلب الأنظمة العالمية وأقواها!.. فلنتخيل لو أن فولتير كان ينتقذ المجتمع الكوبي، وإنجلز ينتقذ المكسيك! فأي تأثير كان سيحدث في مجتمعاتهم؟! فحتى تُرضِي الملاعين يجب على السوري ترك مجتمعه غارقًا في الدماء والصراع، ويهتم بالتعليق على تقاليد مجتمع غرين لاند!!. فالإنسان إنما يسعى لتحسين الجو الذي يعيش به ليتحسن للآخرين كذلك، أما بالنسبة للمتشبتين بالأوضاع المزرية مع علمهم بأنها مزرية! فينطبق عليهم القول «أحيانًا لا يريد الناس سماع الحقيقة؛ لأنهم لا يريدون رؤية أوهامهم تتحطم»، فيتحطم العقل والمجتمع وتظل أوهامهم بأمان! وما لا يصدقه العقل هو رغبتهم في نشدان الحكمة!! رغم أن هذه الأخيرة لا تأتي إلا عن «طريق التحرر من الوهم» بتعبير جورج سانتايانا، ويضيف بتعبير جميل أن «أولئك الذين لا يتذكرون

ماضيهم مكتوب عليهم أن يعيدوه»، ولكان تعبيرًا أجمل لو أنه قال: أولئك الذين لا «ينتقدون» ماضيهم مكتوبًا عليهم أن يعيدوه. وبذلك يصبح مشابهًا لتعبير دانيال هاندلر: «مَن لا يستطيعون فهرسة الماضي محكوم عليهم أن يكرروه!».

وعندما نتحدث عن النقد نتحدث عن كشف الإشكالات ورفع التناقضات وتحطيم الأوهام، وليس السب والشتم كما يفهم ذلك «الناطقون بالعربية» (فالبعض يعتبر العرب هم فقط سكان شبه الجزيرة العربية!! العرب ثقافة وليس بالضرورة أصولاً عرقية). فيشتمون ويظنون أن ذلك هو النقد.

في المجتمع العربي (والمجتمعات المتخلفة بالأخص «أينما كانت») عندما تظهر موهبة ما ولا تجد فرصة لإظهارها، فإن غالبية الشعب تتعاطف معها، وتشتم الدولة والمسؤولين والنظام المتخلف الذي لا يساعد أبناءهم ولا يهتم بالمواهب التي ستضيع وما إلى ذلك من أسطوانات التأنيب. لكن ما إن تنجح الموهبة وتتألق كنجمة في سماء الشهرة، حتى تنهال عليها اللعنات والشتائم! وبما أن الواقع يعرف كثيرًا من النماذج، نكتفي بتوضيع دون ذكر أي منها.. عندما تمتلك أنثى صوتًا جميلًا، يتعاطف الجميع معها إذا لم تجد فرصة للتعبير عن موهبتها ويلقى باللوم على أي من له دخل بالفن والثقافة (كمسؤول) بالمجتمع. لكن حينما تجد الفتاة فرصة (أو تصنعها حتى) وتثبت نفسها، فلا نعلم من أين يأتي الترانزفورمز (المتحولون) الذي يعتبرون ظهور مثل هذه الأمور فسقًا وفجورًا ولهوًا وعري وإباحية وضياعًا للمجتمع، وبأن مثل هذه النماذج تفسد البقية، وبأن المجتمع يلزمه التخلص من التخلف والجهل والبطالة قبل أن يلتفت للموسيقى والرقص والرياضة والحفلات.. المجتمع العربي في حروب وهؤلاء يغنون ويرقصون! والسؤال المطروح هنا هو: «لمَ لا يقوم هؤلاء الترونزفورمز(المتحولون) بالذهاب للحرب وتحرير المجتمع العربي من الإرهاب والاحتلال الصهيوني؟ لمَ لا يصنعون شيئًا مفيدًا بدل الثرثرة السهلة التي يُغطّون بها تفاهتم؟!». لكن مشكلة المجتمع العربي أن كل من صلى ركعتين يظن أنه قام

بإنجاز! كل من صلى شهرًا يريد أن يشتهر، كل من قرأ الأربعين النووية (كتيب جد صغير) يظن نفسه أبا بكر الصديق. يرفع الإنسان رأسه ويخفضه في المسجد فيظن أن فهم كل شيء.

وبما أن الحديث أخذنا للدين فهناك من يدافع عن الدين وكأنه ابن تيمية ولا يصلي حتى!! رغم أنها عماد الدين، بل إن بعض الفقهاء كفروا تاركها! ولا نقول هذا معتمدين على روايات (شفهية متناقلة) بل عن معرفة شخصية بهاته النوعية، حتى إن منهم من أخبرنا بأنه يجب تطبيق القصاص والحد والحكم بالشريعة واتباع السنة والغريب أن الأمر لا يتوقف في تركهم للصلاة (بعضهم يصلي ركعتي الجُمعة فقط!) بل منهم من يظن البخاري صحابيًا! ومنهم من يعجز عن وضع الخلفاء الأربعة بالترتيب! منهم من لا يعرف عدد سور القرآن ومنهم مَن لم يكمل قراءته حتى!!! وقد يصدّقك إذا استشهدت بآية مكذوبة (من عندك)، والغرائب لا تنتهي!. والأخطر أن الإنسان يريد تطبيق تعاليم كتاب ليس فقط لا يفهمه بل لم يقرأه حتى جيدًا!! وهو ما تساءل حوله غوستاف لوبون بقوله: «كم هو عدد الجماهير التي ضحت بأنفسها بنوع من البطولة من أجل عقائد وأفكار لا تفهمها إلا بالكاد؟!».

ولمتابعة ما سبق ذكره وهو عن تعاطف الناس مع المواهب المنبوذة (ما يحقق لها رِفعة لأنها تكشف عن دافع للمساعدة وتقديم العون لو أمكن!) الذي ينقلب لغضب وتحقير (كإخفاء لحسد لاشعوري وإيجاد فرصة لتفريغ معاناتها وفشلها بنفس الوقت) عندما يحلّق أحد تلك المواهب في سماء الشهرة ولا يلتفت لأرض النبذ. ويكفي أن يطلع الإنسان على التعليقات الموجودة بموقع اليوتيوب (فيديوهات المواهب والنجوم العربية) حتى يتضح له ما نشير إليه.

وما يبرر نزعات الحقد هاته، هي أن الفنان أو الرياضي يمثل بلده (كمهمة أو واجب)! فحينما يقع في فضيحة أو خطأ فإن صورة أبناء بلده تتشوه!. فلنتخيل.. «أن أسعى لإنجاز شيء وأجد الملايين ملتصقين بي، يجب أن أحفظ

صورتهم فقط لأنهم يحملون نفس جنسيتي!».

كل شخص لا يمثل إلا نفسه ولا يحفظ إلا صورته ولا يشوه إلا اسمه. فأن يُغيّر رجل جسده إلى جسد امرأة فما دخل الآخرين أبناء بلده؟ «فإذا كان رياضي حائز على ميداليات يمثّلني فإن مجرمًا اغتصب عشرين طفلًا (أينما كان) يمثلني كذلك فقط لأنه ولد بنفس الدولة التي ولدت فيها!». أما بالنسبة للأشخاص الذين يمثلون دولهم في المسابقات، فهذا لخدمة نظام المسابقة (فرز المشاركين بتحديد مناطقهم)، فكل مَن يفوز على أبناء منطقته يصبح ممثلاً لها حتى يتبارى مع الأفضل من المناطق الأخرى (الدّوَل) ليتم فرز الأفضل على مستوى العالم، وبهذا يستحق جميع الناس (من كافة المناطق) المشاركة حتى يُلقّب الفائز بالأفضل على مستوى العالم بحق. وقد لا يمثل المتباري دولته بل حتى منطقة واسعة (أو قارّته) كما يحدث في بعض المسابقات العالمية.

بالنسبة للحدود التي تحدد دولة ما جغرافيًا، فتجعل كل من يفكر في قيامه بشيء خارج تلك الحدود، يتردد ويضرب له الألف حساب أو يتنازل حتى لا يلحق العار بآلاف البشر الذين ولدوا داخل تلك الحدود (إن حدث وفشل)! لا نقول إلا كما قالت فاطمة المرنيسي بأن «الحدود خط وهمي في أذهان المحاربين»! وتضيف أنه «من أجل خلق حدود، يكفي توافر جنود يرغمون الآخرين على الاقتناع بوجودها. أما المشهد بحد ذاته فلا يتغير شيء فيه، إذ لا تكون الحدود إلا في عقول أولئك الذين يحتازون السلطة»(53). والمغفلون يصدقون كل ما يقوله مَن يحتازون السلطة!

في كثير من المجتمعات وخصوصًا المجتمع العربي، أنه حينما يفكر الإنسان بتحقيق حلم ما كاحتراف الفن أو الرياضة أو في أي مجال آخر، فإن الأُسر المنوَّمة مغناطيسيًا ترفض غالبًا، وحتى إذا وافقت فالجملة المشهورة (كإجابة) هي «الدراسة أولاً.. أنهي دراستك ثم قم بما تريد»! ومَن يسمع كل ثنائهم هذا على الدراسة وتأكيدهم على أهميتها سيقول إن المجتمع العربي هو من أرقى

المجتمعات فكريًا على كوكب الأرض! على الرغم من أن المُدرّسِين يحتاجون لإعادة تدريس! زيادة على أن المؤسسات التعليمية (من الابتدائية إلى الجامعة) يصعب التفريق بينها وبين مستشفيات الأمراض العقلية.. نصف ما يُدرّس غير مفهوم والنصف الآخر غير مفيد! وما نفع ذلك التعليم والمجتمع بأغلبيته يتصرف مثل قطيع من الحمير الوحشية! مع العلم بأنه هناك من يتربعون على قمة الهرم الاقتصادي بالمجتمع ومنهم مَن لا يعرف لا الكتابة ولا القراءة! وبالمقابل هناك مَن يدرسون طوال حياتهم ولا يجدون حتى وظيفة!

وغالبًا ما يتم تفسير هذا الأمر بأنه يلزم على الإنسان حتى يحقق ما يريد بالمجتمع أن يكون «عاهرة» أو يوظف «عاهرة» (كإشارة لاستخدام الجنس لخدمة مصالح) أو يملك المال أو له مسؤول (ذو سلطة ونفوذ) من أقربائه يساعده: وهذه الأمور تكشف عن عقلية غبية وعاجزة، فالإنسان ليحقق ما يريد يلزمه ذكاء وحس بالمسؤولية دون حاجة لتخاريف ومصابيح سحرية تُخرِجُ عفاريت يحققون الأماني والطلبات.

الأمة العربية أمة متحدة وهذا ما يدرّسونه للناس منذ صغرهم، لكن يتحدون في ماذا؟! يجيب محمد الماغوط عن هذا السؤال بقوله: «الوحدة الحقيقية القائمة بين العرب هي وحدة الألم والدموع»، فالأغلبية تجدها تبكي وتشتكي وتتوجع وتتذمر من الظروف والبقية تشارك في الحرب والصراع وتعاني من أجوائها! ما دفع نزار قباني ليتساءل «ما للعروبةِ تبدو مثلَ أرملةٍ؟ أليسَ في كتبِ التاريخِ أفراحُ؟». فتاريخ العرب تاريخ غزوات وحروب واستعمار!! ما جعل أحمد مطر يُعلّق على هذا الوضع بألمٍ ساخر ويقول: «وضعنا يضحك منه البكاء.. يا أرضنا، يا مهبط الأنبياء، قد كان يكفي واحد لو لم نكن أغبياء»(54)!

حتى إننا سنجد أن وائل جسار يكشف الكثيرين وحالاتهم النفسية عندما يغني: «أنا يا حبيبي جرح الماضي بعدو عم يوجعني.. إذا شايفني مش عم بشكي فكرك يعني مش موجوع، فكرك يعني مش موجوع»(55)، فالوجع يأتي من

جراح الماضي التي تشكلت كثقافة.. ثقافة المجتمع العربي.

وفي ظل ثقافة موجوعة ستجد الناس موجوعين ويوجعون بعضهم البعض كإعادة إنتاج للوجع، إعادة إنتاجه كثقافة، والتي بدورها تنتج مجتمعًا موجوعًا. وعقل موجوع يعني قلبًا موجوعًا!!

***

فضيلة الغرور

ما يجعل غرور البعض غير محتمل هو تعارضه مع غرورنا الشخصي..

فرانسوا دولا روشفوكول

ما أن يتم ذِكر التواضع حتى يظهر الغرور، وما أن يتم ذِكر الغرور حتى يكشف التواضع عن نفسه. علاقة تاريخية تجمعهما منذ القدم. فعندما تنعت شخصًا ما بالتواضع أنت تنفي عنه الغرور بنفس الوقت، وعندما تنعته بالغرور فأنت تنفي عنه التواضع كذلك. وقبل أن نسمح لبعض التساؤلات بطرح نفسها هنا، سنحاول كشف هاتين المفردتين والمعنى الذي تحاول كل منهما تِبيانه حسب المعاجم اللغوية.

تتفق أغلب المعاجم على أن الغرور هو كل ما يغتر به الإنسان من أعراض زائلة كالمال والشهرة والجاه وسائر الماديات، بغرض التفاخر على الآخرين أي التكبر: كمحاولة الشخص أن يبدو أكبر من الآخرين. لكن يختلف «المعجم الغني» بتوضيح أكثر باعتبار أن الغرور «كِبْرِيَاءٌ وَأَنَفَةٌ تَحتَ ضَغْطِ الشعوُرِ الْخَادِعِ بِالأَهَمِّيَةِ وَالْمَكَانَةِ»(56)، والكبرياء كما نجد في المعاجم اللغوية هو الترفع عن الانقياد، وعدم الخضوع والتذلل للأقوى، كذلك الاستعلاء حسب «المعجم المعاصر».

بهذا نستطيع أن نقول إن الغرور هو محاولة تحقيق أو امتلاك شيء يُمكّن من إظهار الاستعلاء والتفوق على الآخرين، ومن زاوية أخرى هو عدم التذلل أو حني الرأس للآخرين. أين المشكل هنا؟! المشكل أو العيب هو أن السلوك من كلتا الزوايتين ناتج عن شعور الشخص بأنه ذو مكانة وأهمية وهو ليس كذلك! ما يعني أن من يمتلكون مكانة مهمة لا عيب في غرورهم؟!. بالطبع لا! لأن الأغراض التي تحقق لهم المكانة، أعراض زائلة! إذن فالأمر لغز سخيف! ولهذا سنتركه وننتقل للتواضع لربما يكشف لنا عن شيء نظرًا لعلاقته الجدلية بالغرور.

أما بالنسبة للتواضع فنجد أغلب المعاجم تتفق على أنه التذلل والتخاشع، الانخفاض وعدم التكبر أو عدم الارتفاع. ومنه نرى أن التواضع هو الانخفاض، والغرور هو العلو والارتفاع. ما يبرهن عن وجود مقاييس اجتماعية موضوعة تحدد مكانة الشخص، لحثه إما على الانخفاض أو على الارتفاع. والطريف هنا أننا نجد الأهل يسعون لمساعدة أبنائهم حتى يحققوا مكانة مهمة بالمجتمع (الارتفاع)، نظرًا لأن الوالدين يعتبران أبناءهم جزءًا منهم، ما يعني إحياءً لأحلامهم المجهضة أو إكمالها عبرهم (رغمًا عنهم أحيانًا) - فيأتي الدين ويحثهم على الانخفاض، فهو يحارب الغرور حتى تنحني رؤوس الجميع لوسطائه، فالنص صامت وما يحركه (يفسره) هو مُؤوّل النص، وبالتالي فدوره هو الوعظ بأن تفعل ولا تفعل (تحديد السلوك). وللتعمق في هذه النقطة، نجد أن المختصين بالمجال الديني أغلبهم يأتي من بيئة فقيرة، التي تعتبر وسطًا مساعدًا لاحتواء عقد النقص (وللإشارة: تختلف العقد حسب كل بيئة/طبقة اجتماعية تساعد على اكتسابها)، زيادة على الدور السلطوي الذي يلعبه الدين في حياة الناس: فالمعني يجد فرصة لإخضاع البشر وتعويض عن عقده بإبراز التفوق (والتواضع لا يتعلق به بل هو خطاب موجه للآخرين). من هنا نجد في الخطاب الديني إذا استثنينا الترهيب والجائزة والقصص، يتبقى لنا حث على التواضع زائدًا عن الحد. وتستحضرنا هنا جملة لخطيب جمعة أكد فيها الامتناع عن نعت الشخص الجاهل بالجاهل حتى لو كان جاهلًا (كتواضع يعني)! وبماذا سننعته؟! لربما لا يجب نعت اللص باللص والكاذب بالكاذب إلخ. ولكم كان سيكون ذلك الخطيب كبيرًا لو قالها عن الكافر بنفس التعبير!

في الحياة المجتمعية لا ينظر للغرور بقبول، كصفة وكسلوك، والسبب أنه يعتبر أمرًا غير أخلاقي. لمَ؟ لأنه تعبير (بوعي أو دون وعي) يتلقاه الآخر كاحتقار له. فنجاح البعض إشارة لتفوقهم عن الآخرين، ما يعني أن مجموعة (أو حتى فرد) تفوق (ارتفع) عن الآخرين. وهذا حتى بالنسبة لحصولهم أو امتلاكهم لأغراض، فجميعها تشكل تفوقًا أو أفضلية. هنا الجماعة (أو الفرد) تقوم بوخز الباقين

(الأقران) الغير متفوقين بتحسيسهم بوضاعتهم، ونشير هنا إلى أن الأغلبية (إن لم نقل الجميع) في المجتمع تعاني من الإحساس بالوضاعة وقلة الشأن (نِتاج عوامل التربية): لذا يسعون للهروب منها (الوضاعة) بتحقيق الأفضلية والارتفاع عنها، إما بالنجاح في مجالات مرغوبة اجتماعيًا أو امتلاك أغراض تساعد على ذلك.

هنا يبدأ الإشكال أو الصراع، فالغير متفوقين أو البسطاء الذين يحاولون تجنب إيقاظ إحساس الوضاعة فيهم، وإن المتفوقين أو الأثرياء وذوي الأملاك يقومون بتحسيس الآخرين بتفاهتم بأبلغ الصور: فيظهر خطاب التواضع كمخفف يستغله البسطاء للانتقام من المتفوقين باعتبارهم يمثلون الشر، ولتفادي هذا الشر يلزمهم الانخفاض وحني رؤوسهم لهؤلاء البسطاء حتى يسترجع (هؤلاء) إحساسهم بقيمتهم وذواتهم. دون أن نذكر إحساسهم بالفخر لثني المتفوقين رغم تفوقهم ما يفيد محو مسافة الاختلاف (أو الأفضلية)!. لهذا نجد مَن يرفضون الانصياع لهذا الخطاب أو لا يهتمون لأمره وأمر البسطاء، غالبًا مكروهون ومرفوضون. وما أن يتم ذكر أحدهم (نموذج عن الغرور) حتى تنفعل الجماعة في الحديث عنه بالسب والشتم وتوقع حدوث المصائب أو سخرية القدر منه: كمحاولة تخفيفية لما يشعرون به وإشفاء غليل غير واعٍ من مسبب الألم. أما النموذج فلا يقع له شيء! فما يقع فيه المغرورون (بهذا المعنى) يقع فيه كذلك المتواضعون، وربما أكثر!

خوف بعض المتفوقين ماديًا من عدم القبول أو إما بدافع أن يكونوا محبوبين من الجميع، فإنهم يسعون للظهور بمظهر التواضع، فنرى تمثيلية سخيفة يمثلها مرضى عقد الذنب كما يشير شوبنهاور لذلك موضحًا أن التواضع بالنسبة لذوي المهارات العظيمة مجرد رياء.

هنا نود توضيح نقطة قد تبدو صعبة الكشف، وهي أن المتفوقين الذي يتصرفون بتواضع، إنما هم أيضًا يهربون من إحساس الألم الذي يسببه لهم

الأعلى منهم درجة في التفوق، باعتبار أن البشر في المجتمع يُشابهون قطيعًا من النسور تتنافس على الوصول للتحليق في أعالي السماء (أو لأعلى نقطة). ولنا مثال بين العائلات يمكن لأي شخص أن يلاحظه إن لم يكن قد سبق له ولاحظه، وهو عن صداقات تربط أسر غنية بأسر فقيرة وزيارات لها، وقد يبدو ذلك كتواضع من الأولى، لكن ما يخفى هنا هو أنها تفرّ من وسطها المؤلم والذي يضم (ربما) أفرادًا أكثر تفوقًا، إلى وسط تحس فيه بتفوقها وبالتالي رد لاعتبارها. فالاحترام المفقود هناك موجود هنا، كما تشير بذلك الأمثلة الشعبية والدينية بألا تنظر لمن هم فوقك بل لمن هم تحتك، كطرق لتخفيف الألم النفسي.

وهذا يحدث بين العائلة الواحدة (الأعمام، الخالات..) وكذلك الجيران والأصدقاء، بل نجد أُسرًا ذات مستوى اقتصادي عالٍ قادرة على العيش بحي راقي (بما فيه من امتيازات)، لكنها تفضل السكن بالأحياء الشعبية. ليس تواضعًا منها، إنما لأن هذا يحقق لها تفوقًا وتقديرًا واهتمامًا داخل هذا الوسط المتواضع عكس الوسط الآخر. وكذلك نرى نفور البعض (كأفراد أو أُسر) من زيارة بعض أقربائهم أو أصدقاء صاروا (ذوي مكانة اجتماعية أعلى أو ثروة أكبر مثلاً)، ومداومة زيارتهم لأقارب وأصدقاء آخرين (أقل منهم)، وذلك خوفًا من الافتراس النفسي (زيادة عن الخوف من وصمهم بالاستغلال أو التملق)، إن لم نقل أن بعض هاته الأسر تنتقم أو تُسقِطُ إحساسها على الأُسر المتواضعة أو الأقل منها اجتماعيًا أو اقتصاديًا (والأمر لا يختلف بالنسبة للأفراد): من استعراض وتباهٍ وتقديم مساعدات أو توجيهات ونصائح إلخ. وبالنسبة للأسر المتواضعة تحس بفخر؛ لأنها تربطها علاقات بأُسر متفوقة ماديًا (نفس الأمر بالنسبة للأفراد) كهروب من وضاعتها كذلك واختلاف عن الأسر المشابهة في الوسط والتي تربطها صداقات ببعضها بالبعض من نفس المستوى، وكثيرًا ما تجد مثل هذه النوعية تتفاخر بتلك الصداقات (فمن النادر أن تجد شخصًا لا يتفاخر بأقاربه أو معارفه إن كانوا أثرياء أو متفوقين!). عالم مثير للشفقة!

عندما يتجاهلك أحدهم أو لا يهتم لأمرك (مع العلم أنك مهتم لأمره) فهو مغرور، أما إذا قام بالعكس فانخفض واهتم بأمرك فهو متواضع. فبمثل هذه النوعية من التفكير عندما يجد الشخص أنه لم يتمكن من السيطرة على الآخر (المرغوب) فإنه يراه في ركن عالٍ بعيد يصعب اللحاق به أو الوصول إليه. لهذا تبقى الطريقة الوحيدة للسيطرة عليه هي محاولة إنزاله لمستوى المعني، وذلك بحثّه على التواضع أي الانحطاط. فالمعني يقوم بعملية الحث؛ لأنه يشعر بأنه منحط وإلا لما اهتم بالآخر سواء ارتفع أو انخفض كمنظور قطبي للأشياء والأشخاص (أعلى-أسفل)، وتحديد المكانة الاجتماعية حسب هذا المنظور.

إن سألت مغرورًا (أو يبدو كذلك بالنسبة للآخرين) فالأمر بالنسبة له ليس أكثر من عزة نفس، أي أنه يرفض أن ينحني للآخرين ويرفض أن ينقاد لهم أو يمنحهم اهتمامه. وهذا قد نجده عند الجميع باعتباره كرامة أو كبرياء، أما إن قام به الآخر فهذا تعجرف! فالناس مهووسون بأن يقدرهم الآخرون ويهتمون لأمرهم رغمًا عنهم، هذا لأنهم يرزخون تحت وطئة الإحساس بالوضاعة (كما أشرنا سابقًا).

فالمعني يرى نفسه عزيز النفس إذا لم ينحني للآخرين، أما إن قام بذلك الآخر فهو متعجرف (لأنه يرفض أن ينحني لي). والأكثر من هذا!.. أنه إذا تم وانحنى لغيري فهذا يعتبر ذلاً وتملقًا!! لأنه يلزم الإنسان أن يحافظ على كرامته!! أما إذا انحنيت أنا لشخص (وغالبًا ما يكون بغرض مصالح) فأنا شخص متواضع!

فنرى أن كل شخص بإمكانه أن يُفصِّل في الغرور والتواضع والكرامة والذل ويفهمها كما يريد أو على حسب مزاجه، بما يخفف عن نفسه ويحفظ له ماء وجهه. لهذا فحينما ينعتك أحدهم بالغرور فهذا يكشف عن ألم تسببه له! وإذا ما تذللت يومًا لشخص فلا تهتم لذلك؛ لأنك قد تكون تواضعت معه لا أكثر! والتواضع فضيلة!

من تواضع لله رفعه (ربما ليس ماديًا) لكن البشر ستحتقره لأنها لا تؤمن إلا

بالمادة، على حد قول فولتير: عندما يتعلق الأمر بالمال، فالناس على دينٍ واحد.

ونرى أن الناس تسعى أو تفضل مصاحبة المتواضعين، وذلك حتى يُفرّغوا فيهم عقدهم النفسية التي سببها المتعجرفون والمغرورون. أو يحكون لهم عن أمجادهم (الوهمية)! أما المغرورون فعجرفتهم تمنعهم من الإنصات أو منحهم وقتًا لذلك! أما عن احترامهم للمتواضعين فهو مجرد ثرثرة، فالناس تحترم التفوق مهما قالت وخرّفت! لأن التنافس هو الذي يحكم المجتمع ويحدد مكانة الأفراد.

وبالنسبة للمغرور الذي ليس له مكانة أو أهمية اجتماعية، فهو لا يشكل أي تهديد! بل قد يثير السخرية أو يبدو كنكتة.

سرّ النّكد عند برنارد شو: هو أن يتاح لك فراغ من الوقت لتفكر أأنت سعيد أم لا؟! ـ لكن سر ماذا؟ عندما يتاح لك الوقت لتفكر أأنت مغرور أم متواضع؟! إنه الفراغ والتفاهة و«قلة ما يندار!» لا وجود لسر!!

لا نود أن نقول صِحيًا لكن حتى يتجنب الإنسان بعض المشكلات (التي هو في غنى عنها) يلزمه أن يترك أو يحافظ على مسافة بينه وبين الآخرين (لا نشير هنا لمن تربطهم به علاقات حميمية فهذا يختلف). لذا نجد أن الغرور قد يحقق لك ذلك - مهما حاول أن يقول عنه المفكرون التربويون أو السيكولوجيون فهم كذلك مغرورون ولهذا تجد صراع الأفكار بينهم والانشقاق وعدم تقبّل سماع فكرة الآخر أو الأخذ بها حتى لو كانت مساعدة أو مفيدة! - أما بالنسبة للتواضع، فالأغلبية قد تعجز عن التفريق بينه وبين الذل أو التملق بل هناك من سيحسبه طيبة خِرفان (ضعف) أو خضوع حمير (غباء)! نظرًا للوعي الاجتماعي المتوفر بزيادة عن اللزوم!!

فـ«تكبّر.. تكبرّ!، فمهما يكن من جفاك

ستبقى بعيني ولحمي ملاك

وتبقى.. كما شاء لي حبنا أن أراك

نسيمك عنبر وأرضك سكر..

وإني أحبك أكثر»(57).

* * *

ختام: بمنتهى العبث

أنا عربي وأفتخر، أنا مسلم وأفتخر، أنا ملحد وأفتخر، أنا كويتي وأفتخر، أنا اشتراكي وأفتخر، أنا زملكاوي وأفتخر، أنا أنا وأفتخر، أنا لا أفعل شيئًا وأفتخر.. الافتخار لا يكون بالانتماء الديني أو العرقي أو الجغرافي، بل بما يتم تقديمه لإسعاد ورفاهية الإنسانية بكل أطيافها كالتنوير، الطب، التكنولوجيا، الفنون، الأدب، الرياضة إلخ.

فكم ستكون كبيرًا لو أنك تقول: أنا حائز على جائزة نوبل وأفتخر، أنا حائز على 7 ميداليات ذهبية وأفتخر، أنا حائز على 3 جوائز أوسكار وأفتخر، أنا اكتشفت علاجًا للسرطان وأفتخر، أنا وضعت نظرية حلت الأزمة الاقتصادية وأفتخر، أنا انتشلت العديد من الأسر من الفقر وأفتخر، أنا تبنيت 3 صغار مشردين وأفتخر.. وليس أنا أنام وأستيقظ وأفتخر، أنا آكل وأعطس وأفتخر، أنا أشاهد التلفاز وأفتخر، أنا سكران وأفتخر، أنا أتحشش وأفتخر! أنا أعيش كما يعيش أغلب سكان كوكب الأرض وأفتخر..

فكم أنت صغيـرا!.. وكم أنت كبيـر يا لويس باستور.

- ماذا فعل أخونا باستور هذا؟!

- عالم كيميائي فرنسي وأحد أهم مؤسسي علم الأحياء الدقيقة في الطب، ويُعرف بدوره المميز في بحث أسباب الأمراض وسبل الوقاية منها. أسهمت اكتشافاته الطبية بتخفيض معدل وفيات حمى النفاس وإعداد لقاحات مضادة لداء الكلب والجمرة الخبيثة، كما دعمت تجاربه نظرية جرثومية المرض. كان يُعرف لدى عامة الناس بسبب اختراعه طريقة لمعالجة الحليب والنبيذ لمنعها من التسبب في المرض، وهي العملية التي أطلق عليها لاحقًا مصطلح البسترة. يعتبر باستور أحد أهم مؤسسي علم الأحياء المجهرية..

- وماذا بعد؟

- وماذا بعد؟! سكين «جهلك» بالحشا تتربع..

- (مُقاطعًا) لا، لا ليس هكذا بل يقول: وماذا بعد! سكين غدرك بالحشى تتربع، سلمت يداك بقدر ما أتوجعُ كم ذا أقول لمهجتي لا تعشقي فالعشق من دمعاتنا يترصعُ حذرت قلبي من هواك وناره لكن قلبي لا يرى أو يسمعُ

- عقلك هو الذي لا يرى أو يسمع!

- (غاضبًا) منذ البداية وأنت تهينني مرة تنعتني بالشيطان ومرة بالجاهل!!

- لا تغضب، أنا فقط أمزح معك..

- أنت وغد

- ماذا؟! لماذا تنعتني بالوغد؟ هل تعلم أصلاً مَن هو الوغد؟!

- نعم، ولن أخبرك!

- دعني إذن أنا أخبرك..

- !!

- اسمع يا صديقي.. إن أسهل شيء يحققه الشخص.. هو أن يكون وغدًا.

أن تكون وغد(ة) فأنت لا تحتاج(ين) للكثير من الجهد.

الأوغاد لا يحتاجون للكثير من التفكير..

يكفي أن تصرخ بأعلى صوتك.. حين لا يحتاج الناس لصوتك..

وتلزم الصمت.. يوم يحتاجونه..

الوغد.. يصرخ فقط لإزعاج المواطنين..

لا يدرك أن صوته وصراخه قد يساعد المضطهدين..

أو لا يهتم لأمرهم.. لأنه وغد.

أن تكون وغدًا..

يكفي أن تتصرف بأدب مع الأكبر منك مكانة..

ولا يهمك إن تأذى من تصرفاتك الباقون..

لوحة زيتية هو الوغد، تفرض صورتها لكنها قابلة للتحول لسجّادة..

أمام الأحذية الباهظة واللامعة.

حتى تكون وغدًا..

يكفي أن تشكو الظلم وتتألم بسببه.. ثم تضحك وتبتسم لوجوه قضاة المحكمة..

أو أن ترقص طربًا بأرض الموتى.. وأنت قُربان.

يكفي أن تكون غبيًا حتى تكون قربانًا، ويكفي أن تكون قربانًا حتى تكون وغدًا.

أن تكون وغدًا.. هو أن تلمح موجة الطوفان قادمة..

وترسم على رمال الشاطئ قَلبًا.. كتعبير عن حبك للبشر.

لأن هذا ما قالوه في التلفاز!

ولأن هذا أسهل من وصف الطوفان.. لتحذيرهم.

أن تكون وغدًا.. ليس عدم استخدامك لعقلك..

إنما إيجاره هو ما يجعلك وغدًا..

ولست وغدا لأنك تعلم ذلك.. أنت وغد لأنك لا تعلم..

لا تعلم أن طيبتك هي التي تجعلك وغدًا..

الطيبة التي تتقمصها بعد أن أخبرك عنها معلمك وكاهنك.

أنت تعلم أنها ليست طيبتك من أعماقك.

لهذا أنت وغد عندما تتصرف بطيبة ليست طيبتك.

أنت وغد لأنه عندما تتصرف بطيبة غير طيبتك.

فأنت تحب مَن لا يستحقون محبتك.

وتكره مَن قد يستحقون حبك.

أنت وغدٌ لأنك مستعد لقتل من يكرهونك.

لأنهم أخبروك أنهم يكرهونك.

وليس لأنهم يكرهونك.

أنت وغد لأنك تحب من يكرهونك.

دون أن تدرك أنهم يكرهونك.

فيدرّبونك على كره مَن يحبونك، عندما لا تعلم أنهم يحبونك.

الوغد لا يبدل جهدًا كي يعرف من يحبونه ومن يكرهونه..

يكفي أن يصدق ما يقولونه.

وأن تصدق ما يقولونه.. هو ما يجعلك وغدًا.

يكفي حتى تكون وغدًا..

أن تدمّر كل ما هو جميل لأنهم يعجزون عن وصف جماليته.

فتعجز عن رؤية جماله.. لأنك وغد.

ولأنك وغد.. فأنت لا تحس بالجمال ليتجلى لك..

بل تنتظر من يصفه لك.

كم هو سهل أن تكون وغدًا..

أن تُتاجر بالدين، عندما تعجز عن الفهم في الحِساب.

فتستبدل الرياضيات بترويضك للدين حسب المزاج.

كم هو سهل أن تكون وغدًا..

أن تصنع المأساة.. ثم تعتذر.

الوغد لا يعلم الأسباب، لكنه قادر على تبرير النتائج.

فمن السهل تبرير النتائج..

لكنه من الصعب إدراكها قبل البدأ بالتسبيب.

لكن تبرير نتائج أفعالك بعدم إدراكَ للأسباب.. لا يجعلك وغدًا.

ما يجعلك وغدًا.. هو تبرير نتائج أفعالك.

وإلقاء الأسباب على الله.

حشر الله بأفعالهم.. هو ما يجعل الناس أوغادًا.

أوغادٌ هم الشياطين..

لأنه يلقون باللوم على البشر.

والبشر غير موجودين إلا في عقول الشياطين!

يتكاثرون كالطحالب..

فينتشرون بكل مكان كذرات الغبار..

لا يعلمون أنهم أوغاد..

لأنهم صدقوا المواصفات المتداولة (التي لا تنطبق عليهم) عن الأوغاد.

ولأنهم صدقوا الكلام المتداول عن الأوغاد.. فهم أوغاد.

فالوغد لا يبدل جهدًا لتمحيص ما يتداوله.

هل تعني بهذا أنني وغد؟!

تبًا لك ولظنونك! أتحسب أن كل شيء يتمحور حولك ويعنيك أنت فقط؟!

لأنه ليس سوانا هنا أنا وأنت.

- لا.. قل بل ليس سواي في الحمّام. أما أنت فمجرد صورتي المنعكسة بِالمرآة.. تبًا لقد بدأت أُجنّ!

- بل جُننت..

- (صارخًا) فلتصمُت.

(صوت يأتي من خارج الحمّام):

«لقد حان وقت أكل دوائك، هيّا أخرج من الحمام.. هل ستظل هناك طوال اليوم؟!!».

***

---

(1) لوكيوس أبوليوس - الحمار الذهبي، ترجمة عمار الجلاصي، نشر موحمد ؤمادي 2000م - ص233.

(2) نوال السعداوي - المرأة والجنس، دار ومطابع المستقبل الإسكندرية ط1990 4م ـ ص55.

(3) أمينة كميلي - تحقيق بمجلة نجمة المغربية العدد16/ أكتوبر 2008م ـ ص31.

(4) أمينة كميلي - المصدر السابق.

(5)Jeanne-Marie Leprince de Beaumont - La Belle et la Bête _ p5/8

(6)Jeanne-Marie - Source précédente _ p6/8

(7)Jeanne-Marie - Source précédente _ p5/8

(8) شكسبير - عطيل، ترجمة خليل مطران، دار مارون عبود بيروت ط1974 8م ـ ص50.

(9) شكسبير - المصدر السابق ـ ص50.

(10) شكسبير - المصدر السابق ـ ص39.

(11) ثيودور رايك - سيكولوجيا العلاقات الجنسية، ترجمة ثائر ديب، دار المدى ط2005 1م ـ ص112.

(12) سلامة موسى - العقل الباطن، الهلال بمصر 1928م ـ ص12.

(13) نوال السعداوي - المصدر السابق ـ ص134.

(14) نوال السعداوي - المصدر السابق ـ ص55.

(15) نيتشه - هكذا تكلم زرادشت، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل ط2007 1م ـ ص124.

(16) نزار قباني - قصيدة قولي أحبك.

(17) سعاد الصباح - قصيدة أنا ألف مرة أجمل.

(18)Aretha Franklin - You Make Me Feel Like A Natural Woman /1967

(19) نيتشه - المصدر السابق ـ ص125.

(20) نيتشه - المصدر السابق ـ ص328.

(21) نزار قباني - قصيدة هل أنت حقًا تعرف النساء؟

(22) عقدة لوقيوس أو اللوقيوسية.

(23) باتريك زوسكيند - العطر، ترجمة نبيل الحفار، دار المدى ط2007 4م ـ ص46.

(24) باتريك زوسكيند - المصدر السابق ـ ص222.

(25) باتريك زوسكيند - المصدر السابق ـ ص31.

(26) باتريك زوسكيند - المصدر السابق ـ ص166.

(27) باتريك زوسكيند - المصدر السابق ـ ص174.

(28) باتريك زوسكيند - المصدر السابق ـ ص177.

(29) باتريك زوسكيند - المصدر السابق ـ ص197.

(30) روجيه موكيالي - العقد النفسية، ترجمة موريس شربل، منشورات عويدات ط1 ـ ص74.

(31) باتريك زوسكيند - المصدر السابق ـ ص175.

(32) باتريك زوسكيند - المصدر السابق ـ ص272.

(33) بيير داكو - المرأة، ترجمة وجيه أسعد، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق 1983م ـ ص371

(34) بيير داكو - المصدر السابق ـ ص368و369

(35)Théorie du cerveau triunique - Wikipédia

(36) برتراند راسل - الفوز بالسعادة، ترجمة سمير عبده، دار مكتبة الحياة لبنان 1980م ـ ص83.

(37) أبي مدين التلمساني - قصيدة تذلّلت في البلدان.

(38) رامي عياش - أغنية تفاحة (2012).

(39) كولن ويلسن - أصول الدافع الجنسي، ترجمة شرورو/كتّاب، دار الآداب بيروت ط3 ـ ص245.

(40) نزار قباني - قصيدة البغي ـ موقع أدب.. الموسوعة العالمية للشعر.

(41) نصيحة الأسد لابنه - قصة منشورة.

(42) غوسطاف لوبون - سيكولوجية الجماهير، ترجمة هشام صالح، دار الساقي ط1 1991م ـ ص161و162.

(43) دان براون - ملائكة وشياطين، الدار العربية للعلوم ـ ص183.

(44) باولو كويهلو - فيرونيكا تقرر أن تموت، ترجمة ظبية خميس، دار الهلال 2001م ـ ص31.

(45) نيتشه - هكذا تكلم زرادشت، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل ط2007 1م ـ ص162

(46) وديع الصافي - أغنية الليلة مش بكرا.

(47)Skydiver Felix Baumgartner.. - Jonathan Amos - Website Of BBc News

(48) أنيس منصور - كيمياء الفضيحة، دار الشروق ط1994 1م ـ ص 57

(49) محمود درويش - قصيدة طباق - موقع أدب.. الموسوعة العالمية للشعر.

(50) ألفرد آدلر - معنى الحياة، ترجمة عادل بشرى، المجلس الأعلى للثقافة ط2005 1م ـ ص82.

(51) المصدر السابق ـ ص48.

(52) لويس أراغون - قصيدة شظايا - موقع أدب.. الموسوعة العالمية للشعر.

(53) فاطمة المرنيسي - أحلام النساء الحريم، ترجمة ميساء سري ـ ص14.

(54) أحمد مطر - قصيدة فصيحنا ببغاء - موقع أدب.. الموسوعة العالمية للشعر.

(55) وائل جسار - أغنية جرح الماضي (2011).

(56) موقع قاموس المعاني: عربي-عربي.

(57) محمود درويش - قصيدة أحبك أكثر - موقع أدب.. الموسوعة العالمية للشعر.

Telegram:@mbooks90